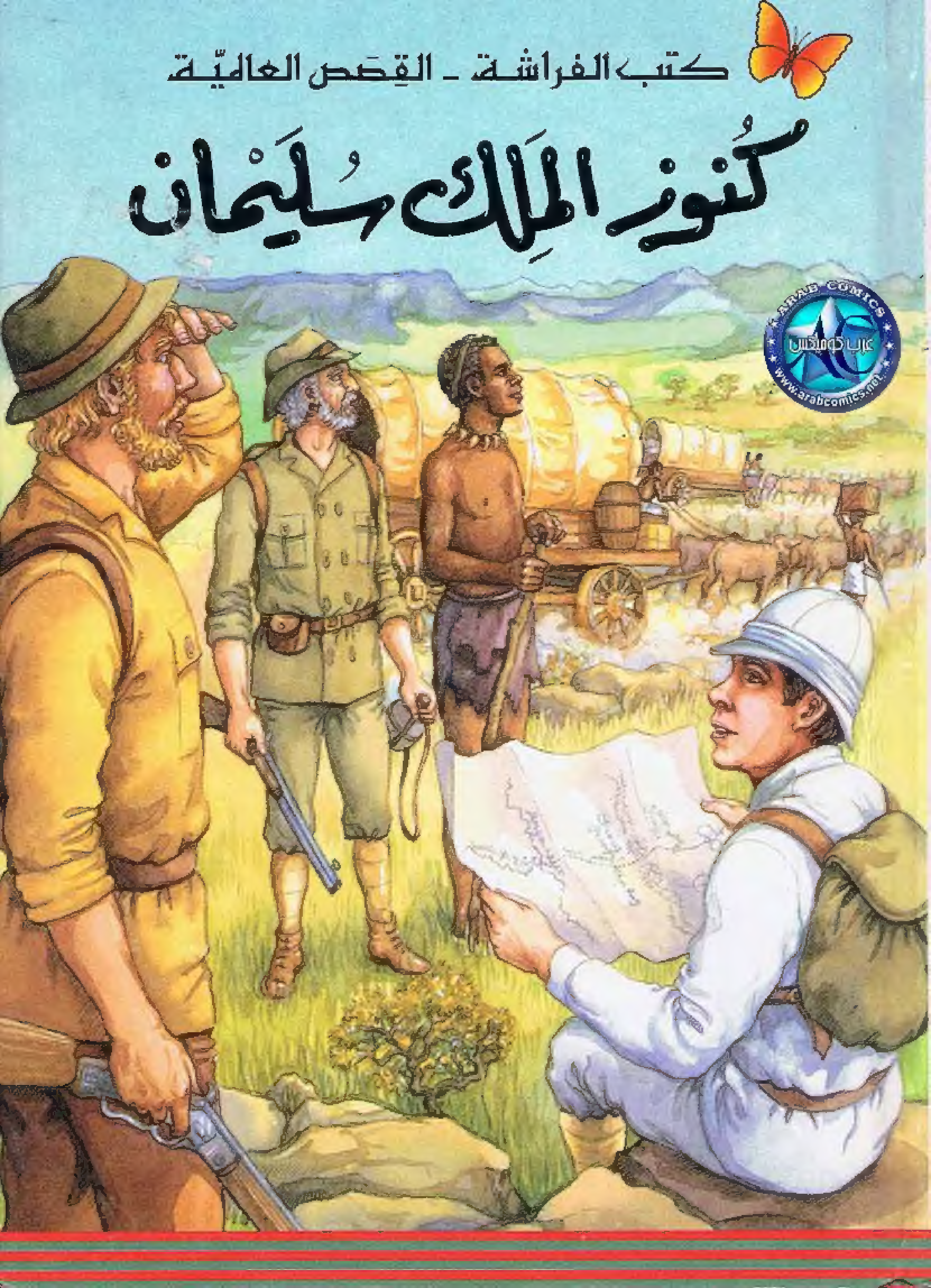


كتب الفراشة - القصص العالميّة
كُنوزِ المَلِكِ سُلَيمان
ARAB COMICS
عرب كوميكس
www.arabcomics.net

كتب الفراشة - القصص العالمية

كُنوز المَلِك سُلَيْمان



أعادَ حِكايتها : الدّكتور ألبير مُطْلَق
عَن قِصّة هنري رايدر هَغَرْد



مَكتبة لبنان ناشِرُون

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل
زقاق البلاط - ص.ب: ٩٢٣٢-١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٥
رقم الكتاب 196815 C 01
طبع في لبنان



مقدمة

فَتَنَتْ إفريقيا في الْقَرْنِ التاسعَ عشَرَ الأوروبيّينَ. رَأَوْها قارَّةً حافِلَةً بِالْغَرائِبِ وَآسِرَةَ الْجَمالِ. وَأَكْثَرَ الرَّحّالَةُ مِنْ رِوايَةِ الْمُغامَراتِ الإِفْريقِيَّةِ الَّتي عاشوها أَوْ سَمِعوا بِها. فَلا غَرابَةَ إذًا أَنْ لاقى كِتابُ **كُنوز الْمَلِكِ سُلَيْمانَ** الَّذي نُشِرَ في الْعامِ ١٨٨٥ نَجاحًا واسِعًا. ذلِكَ أَنَّهُ لَمْ يُقَدِّمْ لِلْقُرّاءِ قِصَّةً مُشَوِّقَةً لِلْغايَةِ فَحَسْبُ، بَلْ قَدَّمَ لَهُمْ أَيْضًا صورَةَ إِفْريقِيا كَما كانوا يَتَخَيَّلونَها وَيُحِبّونَها - إِفْريقِيا الْقَبائِلِ الْغامِضَةِ وَالتُّراثِ الْقَديمِ وَالْكُنوزِ الدَّفينَةِ.

لَقَدِ اسْتَغَلَّ رايْدَر هَغَرْد افْتِتانَ الْقُرّاءِ بِما تُمَثِّلُهُ لَهُمْ إِفْريقِيا مِنْ سِحْرٍ وَغُموضٍ، فحاوَلَ في أَوَّلِ كِتابِهِ أَنْ يُوهِمَ أَنَّهُ يَسْرُدُ وَقائِعَ لا أَحْداثًا خَيالِيَّةً. يَفْتَتِحُ كِتابَهُ «كُنوز الْمَلِكِ سُلَيْمانَ» بِمَشْهَدٍ لا غَرابَةَ فيهِ، يَتَبادَلُ فيهِ نَفَرٌ مِنَ الأوروبيّينَ على مَتْنِ السَّفينَةِ الَّتي كانوا يَسْتَقِلّونَها أَحاديثَ يَتَناوَلونَ فيها قارَّةَ إِفْريقِيا. وَيَنْتَقِلُ الْقارِئُ مِنَ الْعالَمِ الْواقِعِيِّ إِلى عالَمِ الْخَيالِ انْتِقالًا تَدْريجِيًّا رَفيقًا بِحَيْثُ يَتَراءى لَهُ أَنَّ الْمَعالِمَ الرَّئيسِيَّةَ لِلْكِتابِ قابِلَةٌ لِلتَّصْديقِ. وَفي الْكِتابِ أَيْضًا تَفاصيلُ دَقيقَةٌ عَنْ قارَّةِ إِفْريقِيا تُغَذّي هذا الإِحْساسَ بِالْواقِعِيَّةِ. فالْكَثيرُ مِنْ أَسْماءِ الأَماكِنِ الَّتي يُورِدُها هَغَرْد مَوْجودَةٌ فِعْلًا. وَفي الرّيفِ الَّذي يَتَحَدَّثُ عَنْهُ في «كُنوز الْمَلِكِ سُلَيْمانَ» وَفي النّاسِ الَّذينَ يَصِفُهُمْ مَلامِحُ كَثيرَةٌ مِنَ الرّيفِ الَّذي شاهَدَهُ في مَناطِقَ مِنْ جَنوبِ إِفْريقِيا وَمِنَ النّاسِ الَّذينَ قابَلَهُمْ هُناكَ.

ضِمْنَ هٰذا الهَيْكَلِ ذي الطّابَعِ الواقِعِيِّ يُطْلِقُ هَغَرْد لِخَيالِهِ العِنانَ. فَيَصِفُ السّاحِراتِ والخَوارِقَ، والمَمَرّاتِ السِّرِّيَّةَ القَديمَةَ، وطَبْعًا، الكُنوزَ الدَّفينَةَ. ويُبْرِزُ هَغَرْد على مَدى الكِتابِ حِذْقَهُ في خَلْقِ المَشاهِدِ والصُّوَرِ الحَيَّةِ المُثيرَةِ. ولَعَلَّ أَبْرَزَ المَشاهِدِ إثارَةً ذٰلِكَ المَشْهَدُ الّذي يُصَوِّرُ وُصولَ بَطَلِ الكِتابِ وَصَحْبِهِ ودَليلَتِهِم الشِّرّيرَةِ، السّاحِرَةِ غوغول، إلى «كَهْفِ المَوْتِ». هُنا يُصَوِّرُ هَغَرْد، تَصْويرًا قاتِمًا يُنْذِرُ بِالوَيْلِ، المَوْتى مِنْ مُلوكِ القَبائِلِ يَتَحَوَّلونَ بِبُطْءٍ، بِفِعْلِ المَطَرِ المُتَقَطِّرِ مِنْ سَقْفِ الكَهْفِ، إلى حِجارَةٍ. تِلْكَ صورَةٌ مُثيرَةٌ يَصْعُبُ مَحْوُها من مُخَيِّلَةِ القارِئِ. ولَعَلَّها بَدَتْ لِقُرّاءِ ذٰلِكَ الزَّمانِ صورَةً مِنْ إفْريقيا ذاتَ أَساسٍ واقِعِيٍّ.



كُنوزُ المَلِكِ سُلَيمان

عَزيزِيَ الْقارِئُ،

رَأَيْتُ أَنَّ خَيْرَ أُسْلوبٍ أَرْوي لَكَ بِهِ قِصَّتي هُوَ الْأُسْلوبُ الْمُباشَرُ الْبَسيطُ.

أَسْتَميحُكَ عُذْرًا عَلى أُسْلوبِي غَيْرِ الْمُنَمَّقِ في الْكِتابَةِ. فَأَنا قَدْ تَعَوَّدْتُ اسْتِخْدامَ الْبُنْدُقِيَّةِ لا الْقَلَمِ، وَلِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ ما تَعَوَّدَ!

يَقولُ الْمَثَلُ الْإِفْريقِيُّ: «الْحَرْبَةُ الْحادَّةُ لَيْسَتْ بِحاجَةٍ إِلى تَلْميعٍ.» وَعَلى ذٰلِكَ فَإِنّي آمُلُ أَنَّ هٰذِهِ الْقِصَّةَ الْحَقيقِيَّةَ لَنْ تَحْتاجَ، مَهْما بَدا عَلى أَحْداثِها مِنْ غَرابَةٍ، إِلى لَبوسٍ مِنْ كَلِماتٍ مُنَمَّقَةٍ.

أَلَنْ كاتَرْمين



لَعَلَّ مِنَ الْغَريبِ أَنِّي ، أَنا آلَن كاتِرْمين ، وَقَدْ بَلَغْتُ الْخامِسَةَ وَالْخَمْسينَ مِنْ عُمْري ، وَبَعْدَ عُمْرٍ قَضَيْتُهُ في الصَّيْدِ وَالتِّجارَةِ وَالْعَمَلِ في مَناجِمِ إِفْريقِيا ، أَجِدُ نَفْسي أَتَناوَلُ قَلَمًا لِأُدَوِّنَ أَحْداثَ قِصَّةٍ . وَأَغْرَبُ مِنْ ذٰلِكَ الْأَحْداثُ نَفْسُها الَّتي أُدَوِّنُها . لَقَدْ خُضْتُ مُنْذُ ثَمانِيَةِ شُهورٍ مُغامَرَةً مُذْهِلَةً جَلَبَتْ عَلَيَّ ثَرْوَةً واسِعَةً ، وَمَعَ ذٰلِكَ فَإِنّي عَلى يَقينٍ أَنّي لَنْ أَحْتَمِلَ مَرَّةً أُخْرى مَشَقّاتٍ كَالَّتي عانَيْتُها في حُصولي عَلى تِلْكَ الثَّرْوَةِ .

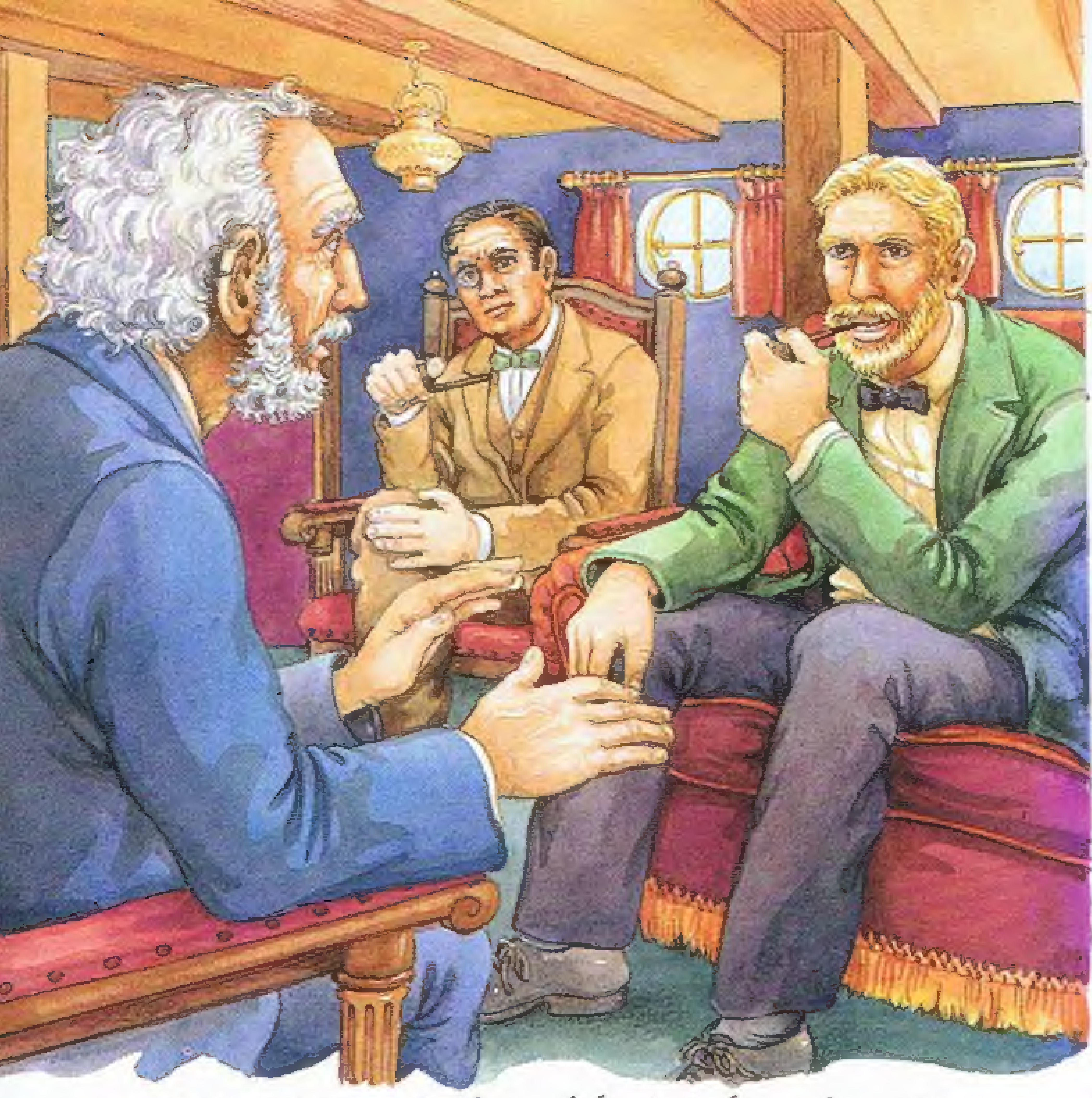
فَلْأَبْدَأْ . كُنْتُ مُنْذُ ثَمانِيَةَ عَشَرَ شَهْرًا عَلى مَتْنِ سَفينَةٍ تُقِلُّني مِنْ مَدينَةِ الْكابِ إِلى ناتال . وَلَقَدْ لَمَحْتُ بَيْنَ الْمُسافِرينَ رَجُلَيْنِ حَظِيا بِاهْتِمامي . أَحَدُهُما السّير هَنْري كورْتِس ، وَكانَ رَجُلًا ضَخْمًا أَشْقَرَ ذا لِحْيَةٍ كَثَّةٍ . وَالْآخَرُ ، وَكانَ يُرافِقُ السّير هَنْري ، قُبْطانٌ مُتَقاعِدٌ وَكانَ أَسْمَرَ قَصيرًا أَنيقًا ، ذا نَظّارَةٍ أُحادِيَّةِ الزُّجاجَةِ شَديدَ التَّعَلُّقِ بِها ، وَشَديدَ التَّعَلُّقِ ، كَما كانَ مُقَدَّرًا لي أَنْ أَعْرِفَ فيما بَعْدُ ، بِطَقْمِ أَسْنانٍ اصْطِناعِيَّةٍ حَسَنِ الصُّنْعِ .

تَبادَلْنا ثَلاثَتُنا الْحَديثَ وَأَتَيْنا عَلى ذِكْرِ هِوايَةِ الصَّيْدِ . وَفَهِمْتُ مِنَ السّير هَنْري أَنَّهُ جاءَ إِلى جَنوبِ إِفْريقِيا لِيَبْحَثَ عَنْ أَخيهِ الْأَصْغَرِ ، جورْج ، الَّذي كانَ قَدْ هَجَرَ الْبَلَدَ قَبْلَ ثَلاثِ سَنَواتٍ لِجَفاءٍ وَقَعَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخيهِ . وَكانَ جورْج قَدِ اخْتَفى بُعَيْدَ ذٰلِكَ اخْتِفاءً غامِضًا في أَثْناءِ رِحْلَةِ صَيْدٍ وَاسْتِكْشافٍ في إِفْريقِيا الْوُسْطى . وَكانَ السّير هَنْري يَشْعُرُ ، عَلى الرُّغْمِ مِنَ الضَّغينَةِ الَّتي كانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخيهِ ، أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَبْحَثَ عَنْ أَخيهِ الضّائِعِ .

وَفيما كانَ السّير هَنْري يَرْوي لي حِكايَتَهُ ذَكَّرَتْني مَلامِحُهُ بِرَجُلٍ كُنْتُ قَدْ قابَلْتُهُ في بَعْضِ مَناطِقِ ناتالَ الدّاخِلِيَّةِ . وَفَجْأَةً بَرَقَ في ذِهْني خاطِرٌ . لا بُدَّ أَنَّ ذٰلِكَ الرَّجُلَ الَّذي قابَلْتُ هُوَ شَقيقُ السّير هَنْري ، فَوُجوهُ الشَّبَهِ بَيْنَهُما صارِخَةٌ . يا لَها مِنْ مُصادَفَةٍ عَجيبَةٍ !

قُلْتُ بِحَماسَةٍ : «أَنا واثِقٌ ، يا سير هَنْري ، أَنّي قابَلْتُ أَخاكَ مُنْذُ سَنَواتٍ في مَرْكَزٍ تِجارِيٍّ ، شَمالِيَّ ناتالَ . وَلَقَدْ أَخْبَرَني دَليلُهُ أَنَّ أَخاكَ اتَّجَهَ شَمالًا «لِيَبْحَثَ عَمّا هُوَ أَنْفَسُ مِنَ الصَّيْدِ وَالذَّهَبِ .»

عِنْدَما ذَكَرْتُ ذٰلِكَ رَأَيْتُ السّير هَنْري وَالْقُبْطانَ غود يَتَبادَلانِ نَظْرَةَ اهْتِمامٍ .



قالَ السيرِ هنْري : «إنَّ ما تقولُ ذو أهمّيّةٍ ، يا سيّدُ كاترْمين. هَلْ ذكرَ الدّليلُ تفاصيلَ غيرَ ذلكَ؟»

«نعمْ! لقدْ ذكرَ شيئًا عنْ كنوزِ المَلكِ سُليْمانَ وَما جرى مِنْ مُحاولاتٍ لِلْعُثورِ عَليْها.»

بَدا التّنبُّهُ الشّديدُ على الرّجُليْنِ ورأيْتُهُما يقتربانِ منّي يترقّبانِ ما أقولُ بِتلهُّفٍ شديدٍ. فشرعْتُ أتابعُ روايتي.

مُنْذُ سِنينَ عَديدَةٍ رَوى لي تاجِرٌ اسْمُهُ إيڤانْز حِكايَةً غَريبَةً. قالَ لي إِنَّهُ اكْتَشَفَ بَقايا حَضارَةٍ قَديمَةٍ في جِبالٍ يُقالُ إِنَّ الْمَلِكَ سُلَيْمانَ خَبَّأَ كُنوزَهُ الْأُسْطورِيَّةَ فيها. وَالسُّكّانُ هُناكَ، وَيُدْعَوْنَ الْكوكوانا، ذَوو صِلَةٍ بَعيدَةٍ بِقَبيلَةِ الزّولو، وَيَتَكَلَّمونَ لَهْجَةً مِنْ لَهَجاتِها، لٰكِنَّهُمْ أَضْخَمُ أَجْسامًا مِنْ رِجالِها.

قالَ السِّيرِ هَنْري، وَقَدْ بَدا عَلَيْهِ الإهْتِمامُ الشَّديدُ: «هٰذا شَيْءٌ مُذْهِلٌ! أَرْجوكَ، أَكْمِلْ حِكايَتَكَ، يا سَيِّدُ كاتِرْمين!»

«عَلَيْكُما أَوَّلًا أَنْ تَعِدا وَعْدًا قاطِعًا بِأَنْ تَحْفَظا سِرَّ ما سَأَرْويهِ لَكُما!»

أَسْرَعَ الرَّجُلانِ يَهْتِفانِ: «طَبْعًا، طَبْعًا!»

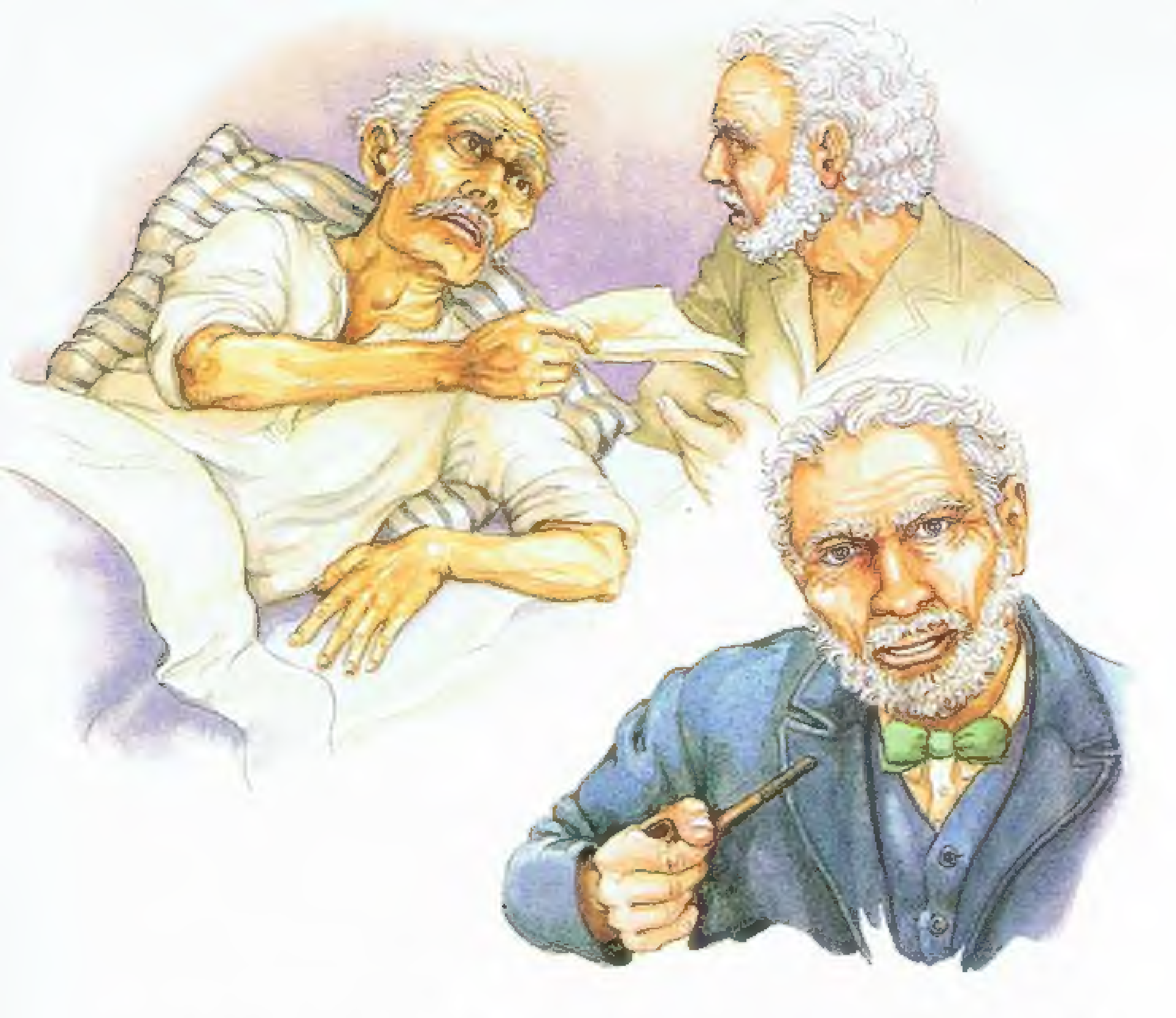
تابَعْتُ رِوايَتي قائِلًا: «ثُمَّ إِنّي بَقيتُ سَنَواتٍ لا تَخْطُرُ لي حِكايَةُ إيڤانْز عَلى بالٍ. إِلى أَنْ كُنْتُ يَوْمًا في مَوْضِعٍ في الشَّمالِ يُدْعى سيتانْدا، يَقَعُ شَماليَّ نَهْرِ زَمْبيزي. وَهُناكَ قابَلْتُ رَجُلًا بُرْتُغاليًّا اسْمُهُ جوزيه سيلْفِسْتَر أَسَرَّ إِلَيَّ أَنَّهُ يَتَّجِهُ بِرِفْقَةِ دَليلِهِ إِلى مَوْضِعٍ في الشَّمالِ الْغَرْبِيِّ، وَأَنَّهُ يَأْمُلُ أَنْ يَعودَ مِنْ ذٰلِكَ الْمَوْضِعِ غَنِيًّا غِنًى فاحِشًا يَفوقُ كُلَّ خَيالٍ.

لَمْ أَكْتَرِثْ بِما قالَهُ الرَّجُلُ. لٰكِنْ حَدَثَ بَعْدَ أَسابيعَ، وَكُنْتُ لا أَزالُ في سيتانْدا، أَنْ جاءَني الْبُرْتُغاليُّ عَيْنُهُ وَهُوَ في حالَةٍ مِنَ الْإِعْياءِ الشَّديدِ، يَجُرُّ نَفْسَهُ جَرًّا، وَقَدْ بَدا أَقْرَبَ إِلى هَيْكَلٍ عَظْمِيٍّ مُتَنَقِّلٍ. إِنْهارَ الرَّجُلُ عِنْدَ قَدَمَيَّ، وَسَمِعْتُهُ يَئِنُّ أَنينًا واهِنًا قائِلًا:

«ماءٌ، ماءٌ!»

قَدَّمْتُ لِلرَّجُلِ الْبائِسِ في خَيْمَتي ما أَمْكَنَني مِنْ عِنايَةٍ. كانَ يَهْذي طَوالَ الْوَقْتِ بِكَلِماتٍ عَنْ ماسٍ وَكُهوفٍ وَساحِراتٍ وَصَحارى. وَبَدا لي أَنَّهُ لَنْ يَعيشَ طَويلًا.

فَجْأَةً سَمِعْتُهُ يَقولُ بِحَشْرَجَةٍ: «إِسْمَعْ، يا سَيِّدُ، أَنا عَلى فِراشِ الْمَوْتِ. كُنْتَ رَفيقًا بي. لَعَلَّكَ تَنْجَحُ حَيْثُ فَشِلْتُ. خُذْ هٰذِهِ! إِنَّ فيها سِرّي وَخَريطَتي. وَكِلاهُما حُفِظا في أُسْرَتي مِئاتِ السِّنينَ، يَتَلَقّاهُما جيلٌ عَنْ جيلٍ. إِنَّها تَرْوي حِكايَةَ جَدِّيَ الْأَكْبَرِ الَّذي



أَحْمِلُ اسْمَهُ، وَكانَ واحِدًا مِنْ أَوائِلِ الْمُسْتَكْشِفينَ الْبُرْتُغالِيّينَ، وَصَلَ إِلى إِفْريقِيا مُنْذُ نَحْوِ ثَلاثِمِئَةِ سَنَةٍ، وَهَلَكَ في أَثْناءِ بَحْثِهِ عَنْ كُنوزِ الْمَلِكِ سُلَيْمانَ. وَقَدْ تَمَكَّنَ دَليلُهُ الْأَمينُ مِنَ الْعَوْدَةِ إِلى الْجَنوبِ حَيْثُ كانَتْ تَعيشُ الْأُسْرَةُ، وَسَلَّمَ الْوَثائِقَ السِّرِّيَّةَ إِلى أَصْحابِها. خُذْها، يا سَيِّدُ، لٰكِنِ اسْتَخْدِمْها أَنْتَ نَفْسُكَ. لَعَلَّكَ تُصْبِحُ يَوْمًا أَغْنى أَغْنِياءِ الْأَرْضِ.»

أَخْرَجْتُ مِنْ جَيْبي نُسْخَتَيْنِ مِنَ الْوَثيقَتَيْنِ مُلَطَّخَتَيْنِ بِالدُّهْنِ وَسَلَّمْتُهُما إِلى الْأَيْدي الْمُتَلَهِّفَةِ الَّتي مَدَّها السَّيرِ هِنْري وَمُرافِقُهُ.

قُلْتُ مُضيفًا: «الْوَثيقَتانِ الْأَصْلِيَّتانِ، وَهُما عَلى قُماشٍ كَتّانِيٍّ باهِتٍ، مَحْفوظَتانِ في مَكانٍ آمِنٍ.»

بيدين مرتعشتين تناول السير هنري الخريطة والرسالة، وقرأ ما يأتي

«أنا، جوزيه دي سلفستر، أشرف على الموت جوعًا في كهفٍ صغير عند أقصى جنوب الجبل الذي سميته أذني شبا. كتبت هذا في العام ١٥٩٠ بعظمة أغمستها في دمي وعلى قطعةٍ من ثيابي. إذا قدّر لدليلي الأمين أن ينجح في إيصال هذه الرسالة إلى أسرتي، فإنها ستعرف كيف يستطيع مستكشف جريء أن يصل إلى بلاد كوكوانا ويحظى بثروةٍ لا توصف من الماس المخبأ في حجرة كنوز الملك سليمان.

«لقد رأيت هذه الكنوز ولمستها، ولكني، بسبب ما لقيته من غدر الساحرة غاغول، قد لا أخرج من هنا حيًا وأروي حكايتي. يتبع الباحث عن هذا الكنز الخريطة، ويتسلق ثلوج أذن شبا اليسرى، ويأخذ طريق سليمان ثلاثة أيام، إلى أن يصل إلى القصر الملكي. وهناك، وراء الموت الأبيض، يجد حجرة الكنوز. وليقتل الساحرة الشريرة غاغول، قبل أن يأخذ طريق العودة. صلوا من أجلي. ووداعًا!»

جوزيه دي سلفستر

وكان مع الرسالة خريطة

تفحّص السير هنري والقبطان غود الرسالة والخريطة بضع دقائق صامتين. قال بعدها السير هنري:

«هذه حكاية غريبة أكاد لا أصدقها على أي حال. ولكن الأول، أيها الأسدقاء، هو أن أتتبع خطوات أخي فأجده أو أعلم على وجه اليقين أنه قد هلك. لعل الطريق التي اتخذها تحملني أيضًا إلى كنوز الملك سليمان. من يعلم؟ أترغب في مرافقتي؟»

في ذلك المساء تحدثنا أنا والقبطان غود في المسألة وقررنا أن نضع يدنا في يد ذلك الرجل المحسور. وعندما أطلعناه على قرارنا، أبدى صديقنا بهجته بأن يكون في صفه رجلان ثابتا العزم، وجلسنا ثلاثتنا نضع مخططنا



عندما رست سفينتنا في دربان دعوت صديقي إلى أن يقيم في منزلي في الوقت الذي نقوم فيه بالإعداد لرحلتنا. لقد تولّى القبطان عود مهمّة التموين. وسرعان ما كان لديه كمّيّات وافرة من المواد الغذائيّة، ومجموعة ضخمة من البنادق والمسدّسات والذخيرة. وبرميل المياه. واشترينا أخيرًا عربتين قويّتين وعشرين ثورًا. واستأجرنا عددًا من السائقين والحمّالين والأدلّاء من دون مشقّة.

وكان من هؤلاء الطيّبين السائقان النبيلان غورا وطوم. والصيّادان المسرحان كيف وفنتفوغل. واكتفى الركب بنفر قليل من الحمّالين.

وفي ليلة الشروع بالحملة جاءني مدبّر المنزل يقول إنّ رجلًا داكن البشرة من رجال قبيلة الزولو اسمه أمبوبا يرغب في رؤيتي. كان زائرنا طويلًا، يضاهي السير هنري طولًا، ويضاهيه، كما تبيّن لنا فيما بعد، صلابة وبأسًا. لقد كانا حقًّا رجلين فذّين وكان

وقد سمع أنّنا ننوي الاتّجاه شمالًا فأبدى رغبة في مرافقتنا. وسرعان ما عرفنا أنّ الرجل زعيم جسور من زعماء الزولو. فسعدنا أن نضمّه إلى فريقنا ووضعناه تحت إمرته سائر الرجال المرافقين.

شرعنا في رحلتنا صباح اليوم التالي، وهو اليوم الثامن والعشرون من كانون الثاني (يناير) عام ١٨٧٨. كانت بداية مشوّقة، ولكن سرعان ما شهدنا تقدّمنا، وسط مشقّات وصعوبات. ولم نصل إلى قرية سيتاندا على نهر لوكانغا، وهي التي تبعد مسافة ألف ميل عن المكان الذي انطلقنا منه، إلّا في العاشر من شهر أيّار (مايو) أي بعد ثلاثة أشهر ونصف الشهر من السفر الشاقّ. وتلك القرية سيتاندا سوق تجاريّة وهي عينها القرية التي كنت، قبل سنين، قد التقيت فيها ذلك الرجل المشرف على الموت حوزيه دي سلفستر وخريطته بعنايتي.



هُنا كُنّا قَدْ أَشْرَفْنا عَلَى الْحُدودِ الشَّمالِيَّةِ لِمِنْطَقَةِ ماتابيل. وشاءَ سوءُ الحظِّ أنْ نضطرَّ أنْ نوقِفَ هُنا حيثُ لنتركَ وسائلَ مُواصلاتِنا وراءَنا، ونتقدَّمَ بعدَ ذلكَ راجلينَ. وهكذا كانَ أنْ تركْنا عربتَنا والاثنيْ عشرَ ثورًا التي بقيتْ بعدَ مشقّاتِ الرِّحْلَةِ ولَسَعاتِ التسي تسي عندَ غوز وطوم. ثُمَّ انْطَلَقْنا راجلينَ عَبْرَ صَحْراءَ لافِحَةٍ. يُرافِقُنا أُمْبوبا وكيفا وفَنْتفوغل وستَّةُ حمّالينَ.

وصلْنا بعدَ أُسْبوعَيْنِ إلى تلَّةٍ صغيرةٍ مُنْتَصِبَةٍ في تلكَ الصَّحْراءِ وتسلَّقْناها بجُهْدٍ جهيدٍ. ومِنْ أَعْلى تلكَ التَّلَّةِ رُحْنا نُحدِّقُ بعَجَبٍ إلى سِلْسِلَةٍ مِنَ التِّلالِ البعيدةِ. تبدو للنّاظرِ إليها شِبْهَ حاجزٍ يحمي ما وراءَها مِنْ بقاعٍ مجهولةٍ. وكانَ في وُسْعِنا أنْ نرى في إحْدى النَّواحي جبلَ سُلَيْمانَ وقدْ أطلَّ مِنْ بعيدٍ، مُشْرَئِبًّا فوقَ التِّلالِ المُجاوِرَةِ، كطيفٍ أزرقَ باهتٍ مُكلَّلٍ بالثُّلوجِ.

كسرَ أُمْبوبا طوقَ الصَّمْتِ، قائلًا: «ذاكَ، يا سير هنري، هُوَ الجدارُ الَّذي يُحيطُ بكُنوزِ الملكِ سُلَيْمانَ. ولكِنْ هَلْ يُقَدَّرُ لَنا أَنْ نَتَسَلَّقَهُ؟ عِلْمُ ذَلِكَ عِنْدَ اللهِ.»

دُهِشْتُ مِنَ الرَّهْبَةِ ورُحْتُ أُحدِّقُ في ذلكَ الجبلِ. وكانَ أُمْبوبا أشدَّ تأمُّلًا. وبعدَ حينٍ قالَ: «لعلَّكَ، يا سيِّدي، وجدْتَ أخاكَ هُناكَ.» ثُمَّ أضافَ بصوتٍ هادئٍ: «وأنا أيضًا أَبْحَثُ عَنْ أَخٍ لي وَراءَ تِلْكَ الْجِبالِ.»



اقْتَرَبْنا مِنْ جبالِ سُلَيْمانَ، مُخلِّفينَ الصَّحْراءَ وراءَ ظُهورِنا. ثُمَّ شرعْنا نتسلَّقُ المُنْحَدَراتِ البُرْكانيَّةَ بقِمَّةِ ثديِ سبأ اليُسْرى، وهي نهدٌ مِنْ أثداءٍ. كما وقعْنا على بعضِ ثمارِ البطّيخِ البرّيَّةِ، وكانتْ فاكهةً غيرَ شهيَّةٍ لكنَّها أنقذتْ حياتَنا. تابعْنا طريقَنا نحوَ القِمَّةِ، ووجدْنا أنفسَنا نتسلَّقُ بقاعًا تكسوها الثُّلوجُ. وبينما نحنُ نجهدُ في تسلُّقِ سفحٍ شديدِ الانحدارِ توقَّفَ غود فجأةً، وقالَ لاهثًا: «أقولُ، لا بُدَّ أنَّنا في مكانٍ قريبٍ مِنَ الكهفِ الَّذي جاءَ ذكرُهُ في رسالةِ سلفستر الجدِّ.»

قالَ السّير هنري: «نعمْ، وإذا لمْ نجدِ الكهفَ عمّا قريبٍ، سنموتُ بردًا.»

توقَّفَ أمويو فجأةً، وهتفَ: «انظرْ يا سيِّدي!» وهناكَ عندَ أسفلِ إحدى الأدني سناً، على بُعدِ نحوِ مئةِ مترٍ منّا، رأيْنا فتحةَ الكهفِ المُعتِمةِ.

كانَتْ عظامُنا قدْ تصلَّبَتْ وتجمَّدَتْ بَرْداً، فجرَرْنا أنفُسَنا ورُحنا نزحَفُ إلى حِمى الكهفِ طلَباً للدِّفْءِ. كانَ فتفوعِلُ المِسكينُ يُشرِفُ على الهلاكِ وفي ساعاتِ الصُّبحِ الأولى، وكُنتُ إلى جانبِهِ، أسلَمَ الرّوحَ.

عِندَ انبلاجِ الصَّباحِ تسلَّلَتِ الشَّمسُ إلى داخِلِ الكهفِ. فجأةً سمِعتُ صرخةَ رُعبٍ حادَّةً. وعلى بُعدِ عشرةِ أمتارٍ منّا رأيْنا جثَّةً يابسةً كانَ ذلكَ فوقَ ما نحتمِلُ. فأسرعْنا كلُّنا نخرُجُ مِنَ الكهفِ إلى هواءِ الجبَلِ الجليديِّ.

وبَعدَ حينٍ عادَ السَّيرُ هنري والقُبطانُ إلى الكهفِ ليستقصيا الأمْرَ.

قالَ السَّيرُ هنري: «نعَمْ، إنَّ هذا لشيءٌ مُذهِلٌ حقّاً! إنَّها جثَّةُ الحدِّ سيلفستر الذي ماتَ قبلَ نحوِ ثلاثمِئةِ سنةٍ. لقدْ حفِظَ البَرْدُ القارِسُ جثَّتَهُ.»

تركَتْ فينا هذهِ الأحداثُ أثرَها البالِغَ فجمَعْنا حوائجَنا وانطلَقْنا في وجهَتِنا، مُخلِّفينَ وراءَنا سيلفستر الحدَّ ومُرافقَهُ الحديدَ، فتفوعِلَ المِسكينَ، لراحتِهِما الأبديَّةِ.

كانَ البَرْدُ قدْ خدَّرَ أجسادَنا وأوهنَها الجوعُ لكِنْ عِندَ حافَةِ الجبلِ البعيدةِ، حيثُ كانَ الضَّبابُ قدْ بدأَ ينقشِعُ، رأيْنا ما أعادَ الأمَلَ إلى قلوبِنا فقدْ كانَ أمامَنا في مُنحدَرٍ قريبٍ عُشبٌ أخضَرُ، وعِندَ جدولِ ماءٍ رأيْنا قطيعاً مِنَ الغِزلانِ. أمسَكْنا بنادقَنا، وصوَّبْنا تصويباً دقيقاً، فقدْ كانَتْ حياتُنا تتوقَّفُ على دِقَّتِنا في التَّصويبِ. أطلَقْنا النّارَ فسقَطَ غزالٌ أرضاً. وعلى الرَّغمِ مِنْ ضعفِنا، اندفَعْنا في المُنحدرِ، وما هيَ إلّا دقائقُ حتّى كُنّا قدْ وصلْنا إلى صيدِنا. ورُحْنا في أثناءِ تناوُلِ الطَّعامِ، نتلفَّتُ حولَنا فرأيْنا بلاداً لمْ نرَ مِنْ قبلُ أجمَلَ مِنْها. فعلى انخِفاضِ ألفَيْ مترٍ تحتَنا رأيْنا مروجاً خضراءَ غنيَّةً وغاباتٍ كثيفةً، ونهراً — وطريقَ سُليمانَ العظيمَ.

وكانَ ذلِكَ هُوَ الطَّريقَ الّذي سلَكْناهُ حتّى الظُّهرِ. فعبَرْنا جسراً واجتزْنا ممرّاً نُقِشَتْ على جانبَيْهِ أشكالٌ غريبةٌ لِمعرَكةٍ.





جلسنا عند جدولِ ماءٍ صغيرٍ نستريحُ، وأخذ غود يغتسلُ ويحلقُ ذقنهُ. كانَ قد أتمَّ حلقَ جانبٍ واحدٍ من وجههِ، عندما رأيتُ وميضَ رُمحٍ يلمعُ طائرًا فوقَ رأسهِ. قفز غود من مكانهِ متمتمًا، والتفتنا كلُّنا فرأينا عددًا من رجالٍ طوالٍ نحاسيّي البشرةِ يتقدّمون منّا صامتين.

خاطبنا أولئكَ الرِّجالُ بلهجةٍ قديمةٍ من لهجاتِ قبائلِ الزّولو، فهمناها أنا وأمبوبا. وقد هدّدوا بقتلنا قصاصًا لنا على دخولنا منطقتهم. وعندما ترجمتُ ما هدّدونا به، اضطربَ غود وراحَ يحرّكُ أسنانَهُ الاصطناعيّةَ. فجفلَ الرِّجالُ وبدرت عنهم صرخةُ ذعرٍ. فخطرت لي فكرةٌ. رفعتُ بندقيّتي وصوّبتها إلى ظبيٍ كانَ واقفًا على صخرةٍ قريبةٍ وأطلقتُ النّار. لقد كانَ لهذا العملِ الباهرِ، إلى جانبِ ما رأوهُ من أسنانِ غود المتحرّكة، أثرُهُ في الرِّجالِ الّذينَ ظنّوا أنّ لدينا قوى سحريّةً. وعندما طلبنا منهم أن يأخذونا إلى مليكهم أذعنوا بإجلالٍ.



في أثناءِ الطّريقِ سألتُ زعيمَ الجماعةِ، وكانَ يُدعى إنفادوس، بضعةَ أسئلةٍ. وقد أخبرني أنّ حربًا أهليّةً نشبت في قبيلتهم كوكوانا قبلَ سنينَ عديدةٍ. في تلكَ الحربِ انتزعَ توالا، الملكُ الحاليُّ، السُّلطةَ من أخيهِ إيموتو. وفرّت زوجةُ إيموتو بابنها إغنوسي. لكنْ يُشاعُ أنّ المرأةَ وابنها ماتا في الجبالِ لاحقًا. وأنا أستمعُ إلى قصّةِ إنفادوس، رأيتُ أنّ شخصًا آخرَ كانَ ينصتُ باهتمامٍ بالغٍ إلى كلماتِهِ. كانَ ذلكَ هو أمبوبا الّذي كانَ يتأثّرُ خطوتنا.

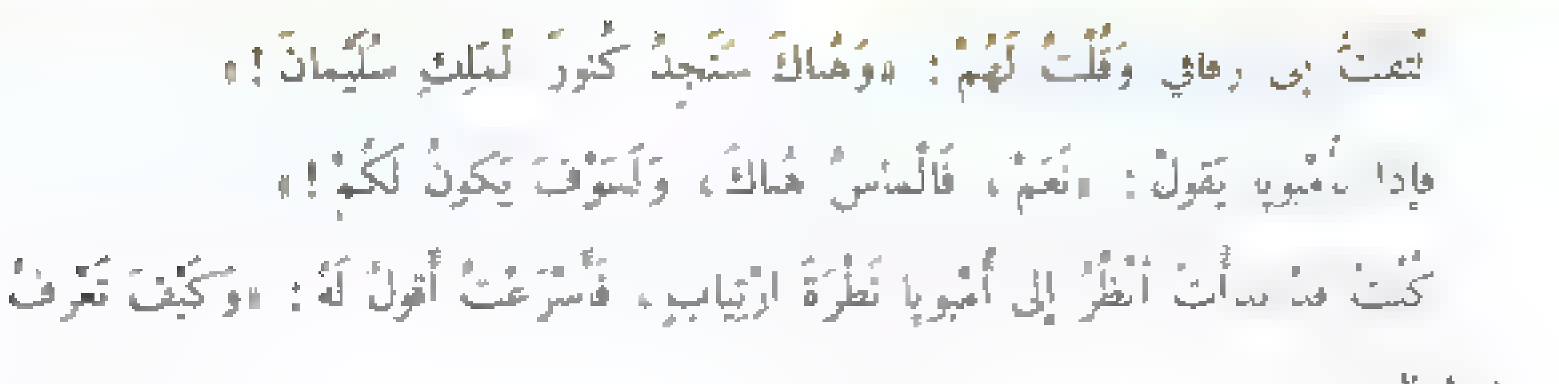


بَعِيدًا. لَقَدْ كُنَّا قَدِ اقْتَرَبْنَا مِنْ قَرْيَةٍ، وَرَأَيْنَا رِجَالًا يَخْرُجُونَ مِنْ بَوَّابَاتِهَا مُجْتَمِعِينَ أَفْوَاجًا. فَقَدْ كَانَ نَبَأُ مَا حَدَثَ قَدْ ذَاعَ. كَانُوا يَحْمِلُونَ رِمَاحًا بَرَّاقَةً وَيَرْتَدُونَ فَوْقَ رُؤُوسِهِمْ رِيشَ نَعَامٍ، وَيَمْشُونَ فَتَهْتَزُّ لِمِشْيَتِهِمُ الْأَرْضُ. لَقَدْ كَانَ مَشْهَدًا رَائِعًا حَقًّا.

وَصَلْنَا عِنْدَ الْغُرُوبِ الْعَاصِمَةَ، لُو. وَكَانَتْ مُسْتَوْطَنَةً بَدِيعَةً يَبْلُغُ مُحِيطُهَا خَمْسَةَ أَمْيَالٍ. وَرَأَيْنَا النَّاسَ عِنْدَ مَدَاخِلِ أَكْوَاخِهِمْ يُحَدِّقُونَ بِنَا، مُحَدِّقِينَ خُصُوصًا بِالشَّخْصِ ذِي النَّظَّارَةِ الزُّجَاجِيَّةِ.

وَحِينَ ... تَعِبْتُ ثَلَاثَةُ جِبَالٍ ذَاتِ أَشْكَالٍ غَرِيبَةٍ. قَالَ إِنْفَدُوس: «هُنَاكَ نِهَايَةُ الطَّرِيقِ. وَهُنَاكَ يَرْقُدُ الْمَوْتَى مِنْ مُلُوكِنَا فِي دَارِ الْمَوْتِ.»





الْتَفَتُّ إِلَى رِفَاقِي وَقُلْتُ لَهُمْ: «وَهُنَاكَ سَنَجِدُ كُنُوزَ الْمَلِكِ سُلَيْمَانَ!»

فَإِذَا أُمْبُوبَا يَقُولُ: «نَعَمْ، فَالْمَاسُ هُنَاكَ، وَلَسَوْفَ يَكُونُ لَكُمْ!»

كُنْتُ قَدْ بَدَأْتُ أَنْظُرُ إِلَى أُمْبُوبَا نَظْرَةَ ارْتِيَابٍ، فَأَسْرَعْتُ أَقُولُ لَهُ: «وَكَيْفَ تَعْرِفُ ذَلِكَ؟»

أَجَابَ ضَاحِكًا: «رَأَيْتُهُ فِي نَوْمِي!»

نِمْنَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، حِفَاظًا عَلَى سَلَامَتِنَا، فِي كُوخٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ أَنْهَكَنَا السَّفَرُ الطَّوِيلُ.

استقبلنا الملك طولا في الصباح. وكان أمام الكوخ الملكي ساحة واسعة تملأها مجموعات من المحاربين ذوي الريش الرمادي يقفون ساكنين لا تختلج لهم عضلة وكأنهم قُدّوا من صخر. انتظرنا في ذلك الصمت المطبق عشر دقائق أو يزيد. ثم برز من الكوخ رجل عملاق، هو الملك طولا، يرافقه ثلّة سكرتاريا وشخص قميء منكمش أشبه بقرد.

كان طولا ذا هيئة مرعبة. ولقد زاد في تشويه وجهه المرعب الشرير فقدانه إحدى عينيه. وكان على جسده فروة ضخمة وفي يده حربة ثقيلة.

صاح الشخص القميء الشبيه بالقرد بصوت حاد: «أيها الناس، أطيعوا! إنه الملك!»

انطلقت حناجر ثمانية آلاف محارب في صيحة واحدة تحية. ولم يعكّر الصمت المطبق الذي تلا تلك الصيحة إلا قرقعة درع أوقعها محارب عفواً. كانت تلك جريمة لا تغتفر، ورأينا الرجل المنكود الحظ يُقتل أمام أعيننا. لقد أغضب ذلك الاستهتار بحياة البشر السير هنري، وأسرعنا نحثّه على أن يتمالك أعصابه.

التفت طولا عابساً إلينا. ولم يكن قد صدّق أن لدينا قوى خارقة. وتحدّانا أن نطلق النار، إثباتاً لقوانا السحرية، على أحد رجاله. لكننا أكّدنا له أننا لا نستهتر بحياة الناس، وأطلقنا النار، عوضاً عن ذلك، على ثور كان قريباً منا فوقع أرضاً. وبدا الملك عندئذٍ مقتنعاً بما ندّعي.



لكنّ الشخصَ الشبيهَ بالقردِ نهضَ عندئذٍ، وراحَ يتكلّم. وعندما سمعتُ الصوتَ أحسستُ بالدماءِ تتجمّدُ في عروقي. لقد كانَ ذلكَ المخلوقُ العجيبُ امرأةً طاعنةً في السنّ، شبيهةً بساحرةٍ، قصيرةَ القامة، غارقةً في تجاعيدَ صفراء، وتجعّدتْ بشرتها فوقَ عظامِها وجمجمتِها عاريةً من الشعر.

كانت تصرخ: «دمًا دمًا أريدُ من الدم!» ثمّ قالت العجوز: «رأيتُ دماءً كثيرةً أبدًا لكنّني سأرى قبلَ أن أموتَ مزيدًا من الدم.» ثمّ أشارتْ إلى أمنيو، وقالتْ: «ذلك الرجلُ، ذو الوجهِ الشمسيّ المرفوع، من قِبَلِه أشتمُّ رائحةَ الدم.» ثمّ سقطتْ على الأرض فجأةً مغشيًّا عليها.

عُدنا إلى الكوخِ المتفي للقبيلة، توجّستُ خيفةً من عينيِ [illegible] الشرّيرتين ومن نبوءاتِ الساحرةِ العجوز.

في الكوخِ سألتُ إيغدوس: «إنّ طولا حاكمٌ شديدُ الظلم، فلِمَ لا تستبدلونه بسواه؟»

تنهّدَ العجوزُ وقال: «إذا تخلّصنا منه فسيجيءُ سكراعا مكانَه. وقد كان سكراعا أشدَّ سوءًا من قبلِ أبيه. لو كان إيغوتو وابنه إغوسي على قيدِ الحياة لاختلفَ الأمر.»

سألَ أمنيو: «وكيفَ تعرفُ أنّ إغوسي مات؟»

فاجأَ ذلكَ السؤالُ إيغدوس، لكنّ أمنيو تابعَ كلامَه قائلًا.

«ماتت الأمُّ. أمّا إغوسي فلم يمتْ، وظلّ إغوسي سنينَ يعملُ حدّادًا وحطّابًا، إلى أن التقى رجالًا مغامرين يرافقُهم عندئذٍ إلى بلاده.»

شرعَ إيغدوس يحتجُّ على ما يسمع، انتصبَ أمنيو عندئذٍ واقفًا وكشفَ عن صدرِه فإذا عليه وشمٌ وحشيّ راجف. فخرَّ إيغدوس أرضًا، وهتف:

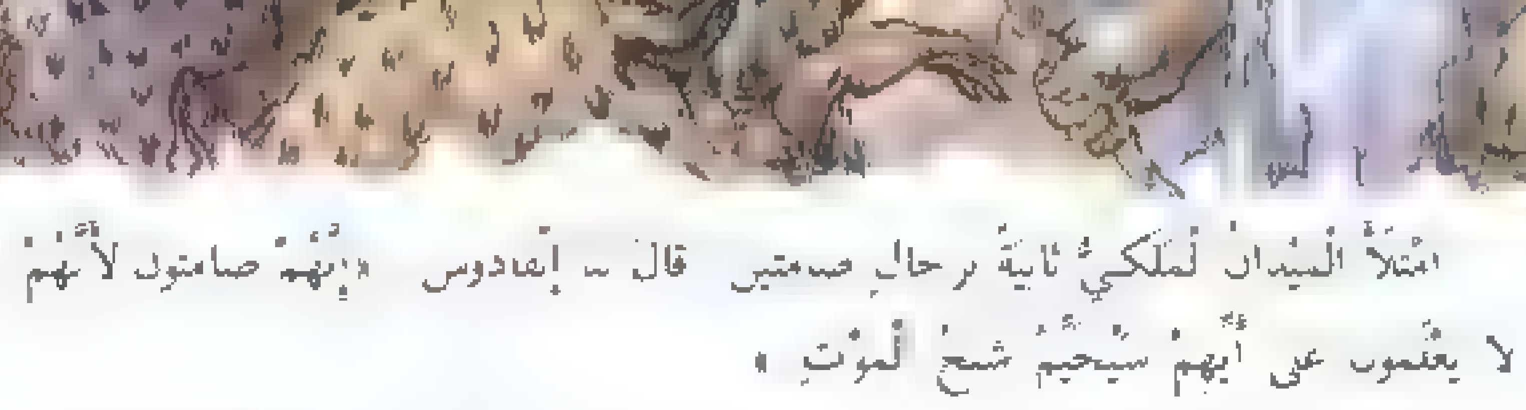
«الوشمُ الملكيّ! أنتَ ابنُ أخي! أنتَ الملك!»



قالَ أُمْبوبا بِلُطْفٍ: «لَمْ أَصِرْ مَلِكًا بَعْدُ. أَعْني أَصيرُ مَلِكًا! لكِنْ، كَما تَنَبَّأَتْ غاغول، سَتَسيلُ الدِّماءُ أَنْهارًا في الْبِلادِ!»

وَهُناكَ، في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَقْسَمْنا ثَلاثَتُنا، وَأَقْسَمَ إِنْفادوس، عَلى أَنْ نَقِفَ كُلُّنا مَعَ أُمْبوبا، أَوْ إِغْنوسي، بِالاسْمِ الْحَقيقِيِّ.

أَبْلَغَنا إِنْفادوس أَنَّ احْتِفالًا كانَ سَيُقامُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَأَنَّهُ بَعْدَ الاحْتِفالِ سَيَأْتي إِلى خَيْمَةِ إِغْنوسي يُرافِقُهُ عَدَدٌ مِنْ زُعَماءِ الْبِلادِ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ أَنَّهُمْ سَيَقِفونَ مَعَهُ. وَعِنْدَ الْغُروبِ أَرْسَلَ الْمَلِكُ يَسْتَدْعينا. كانَ مَعَ الرَّسولِ ثَلاثُ دُروعٍ زَرَدِيَّةٍ فَلَبِسْناها تَحْتَ ثِيابِنا احْتِرازًا.



امتلأ الميدان بممالك ثانية رجال صامتين. قال ... إنغادوس: «إنهم صامتون لأنهم لا يعلمون على أيهم سيحل شبح الموت.»

أقبل طولا وأمه والعجوز غاغول خارجين من الكوخ. ثم خرج من الظلام أطياف مرعبة. فبدت تجري صوب غاغول، فإذا هي عجائز بارزة العظام تتطاير في حركتهن شعورهن البيضاء. وعندما وصلن إليها صحن:

«يا أمنا، يا أمنا الطيبة، ها نحن بين يديك!»

أجابت غاغول: «عظيم. عظيم! أتشممن رائحة دم؟ ... جائعات لتنفيذ عدالة السماء؟ فلتصبن إذا، فالجلادون ينتظرون جرائمهم!»

صاحت إحدى الشر صيحة مرعبة وانتشرن بين المحاربين. اقتربت إحداهن من مجموعة من الرجال، وراحت ترقص مشيرة إليهم، وصاحت: «أشم رائحة شرير!»

ثم لمست كتف رجل منهم. فجمد خوفا. وأسرع اثنان من الرجال يجرونه إلى وسط الميدان.



صاحت غاغول: «اقتلوه!» وهكذا أن يرى الرجل يقتل. حتى قبل أن تنهي غاغول كلمتها. وتتابعت لعبة الموت.

أخيرا أحدث العجائز الراقصات يقتربن منا. فتمتم السير هنري قائلا:

«على من سيقع اختيارهن؟»

مدت غاغول يدها ووضعتها على كتف إغنوسي.

صحت: «لا، أيها الملك!» ثم وجهنا كل مسدسنا صوب طولا.

جمد طولا فزعا، فقد كان رأى ما في أسلحتنا من قوة فتك. ثم كشر عن أسنانه وقال: «سأبقي على حياته، لا لأني خائف منكم، بل لأنه ضيفكم.»

عندما انتهت عمليات القتل تلك الليلة توجه العديد من الزعماء يشدون الأمل عند إغنوسي. فأراهم إغنوسي الوشم حول خصره، علامة سنة الملكي. فاتفقوا جميعا على أن يخلعوا طولا. لكن الشك كان لا يزال يساور بعض أولئك الزعماء فالوشم قد لا يكون أصليا، بل تقليدا له. وقالوا: «لن نقوم بتحرك إلا إذا تلقينا آية دامغة!»

دَقَّتْ بِنَا الْيَأْسُ، وَجَرَّنَا فِي الْمَرَارَةِ. لَكِنَّ غُودَ أَخْرَجَ مِنْ جَيْبِهِ تَقْوِيمًا صَغِيرًا كَانَ يَحْمِلُهُ مَعَهُ دَائِمًا، وَقَالَ:

«انْظُرُوا هُنَا، يَا رِفَاقُ! أَلَيْسَ غَدًا هُوَ الرَّابِعَ عَشَرَ مِنْ حَزِيرَانَ (يُونْيُه)؟ أَظُنُّ إِذَنْ أَنَّ الْفَلَكِيِّينَ مَا يَقُولُونَ: فَغَدًا يَخْسِفُ الْقَمَرُ. وَسَيَتِمُّ ذَلِكَ، إِذَا صَحَّتْ حِسَابَاتِي، بَيْنَ الْعَاشِرَةِ لَيْلًا وَمُنْتَصَفِ اللَّيْلِ. أَعْلِمُوا هَؤُلَاءِ الزُّعَمَاءَ أَنَّنِي سَأُعْتِمُ لِأَجْلِهِمُ الْقَمَرَ»

لَمْ أَكُنْ مُطْمَئِنًّا فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ. لَكِنَّهَا كَانَتْ أَمَلَنَا الْوَحِيدَ. فَوَافَقْتُ

فِي اللَّيْلَةِ التَّالِيَةِ أُقِيمَ احْتِفَالٌ بِمَوْعِدِ الزِّينَةِ وَحَفْلِ الرَّقْصِ. وَفِي الْمَيْدَانِ أَمَامَ كُوخِ الْمَلِكِ عَلَى غِرَارِ مَا كَانَ اللَّيْلَةَ السَّابِقَةَ. فَقَدْ كَانَ مُزْدَحِمًا بِفَتَيَاتٍ جَمِيلَاتٍ تَعْلُو رُؤُوسَهُنَّ تِيجَانُ الْأَزْهَارِ

وَبَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ أَخَذْنَ بِالْغِنَاءِ. وَتَقَدَّمَتْ إِحْدَاهُنَّ تَرْقُصُ فِي الضَّوْءِ الْخَافِتِ رَقْصَةً بَهِيجَةً. وَعِنْدَمَا تَعِبَتْ حَلَّتْ أُخْرَى مَحَلَّهَا. وَهَكَذَا تَتَابَعْنَ عَلَى الرَّقْصِ وَاحِدَةً بَعْدَ أُخْرَى. وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُنَّ وَاحِدَةٌ تُضَاهِي فِي رَقْصِهَا الرَّاقِصَةَ الْأُولَى عُذُوبَةً وَرَشَاقَةً.

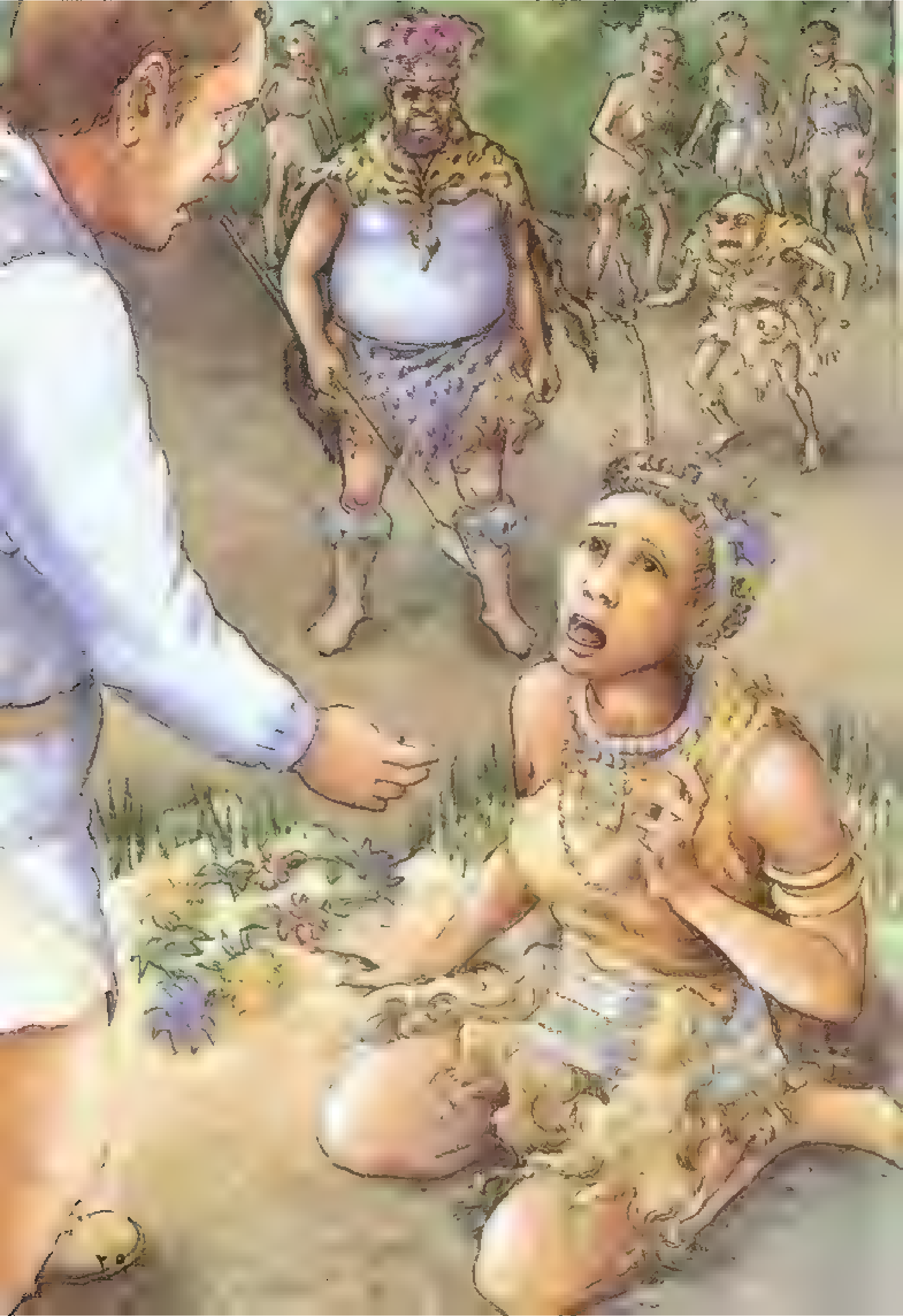
عِنْدَمَا انْتَهَتِ الرَّاقِصَاتُ كُلُّهُنَّ رَقْصَهُنَّ الْتَفَتَ إِلَيْنَا طُولَا، وَقَالَ: «أَيُّهَا الزُّوَّارُ. أَيَّتُهُنَّ الْأَجْمَلُ؟»

قُلْتُ دُونَ تَفَكُّرٍ: «الْأُولَى. إِنَّهَا جَمِيلَةٌ!»

ضَحِكَ طُولَا، وَقَالَ: «وَهَذَا هُوَ رَأْيِي أَيْضًا. إِنَّهَا الْأَحْسَنُ. لَكِنَّ ذَلِكَ مِنْ سُوءِ حَظِّهَا. فَإِنَّهَا بِذَلِكَ سَتَمُوتُ. فَالْأَجْمَلُ يُضَحَّى بِهِ»

اقْتَرَبَتْ عَجُوزٌ مِنَ الصَّبِيَّةِ الْجَمِيلَةِ، وَاسْمُهَا فُولَاطَا. وَوَضَعَتْهَا عَلَى مَا يَظْهَرُ. فَأَخَذَتِ الْمِسْكِينَةُ تَرْتَعِشُ وَتَنْتَحِبُ وَكَانَتْ فِي حُزْنِهَا فَائِقَةَ الْجَمَالِ. لَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُغَيِّرْ قَلْبَ الْمَلِكِ

ثُمَّ عَادَ تَائِهَ النَّظَرِ. وَلَكِنْ لَمَحْتُ غُودَ عَلَى وَجْهِهِ وَلَمَحَتْ فُولَاطَا ذَلِكَ مِنْهُ فَرَمَتْ نَفْسَهَا عِنْدَ قَدَمَيْهِ تَحْتَمِي بِهِ





همس السير هنري قائلاً: «الآن وقتك!» فرفعتُ بصري إلى السماء ولاحظتُ على حافة القمر ظلًا دقيقًا. فصحتُ بأعلى صوتي:

«إن لم تُبقوا على حياتها، فإنّ الآتي من القمر سيطفئ قنديل السماء!»

ثمّ رفعتُ يديّ إلى السماء وبدأتُ أردّد أبياتًا من الشعر لا يفهمها أحدٌ حتى معظم الناطقين بلغتنا، آملًا أن يظنّوها رقيةً سحريّة.

كان السواد قد بدأ يزحف على قرص القمر، وتولّى غود إتمام الرقية عنّي. وراح يطلق عبارات غير مفهومة اتّصلت مدّة عشر دقائق دون أن يكرّر عبارةً واحدةً منها.

بينما كان الظلام يزحف غالبًا، كان الجمهور المحتشد يرقب في صمت. وسرعان ما دبّ الذعر في الناس المتجمهرين وأخذ بعضهم يلوذ بالفرار.

صاح سكرغا، ابن الملك: «السحرة قتلوا القمر!» ثمّ قذف السير هنري برمحه لكنّ الدرع الزرديّة أنقذت صديقنا. فالتقط الرمح ورمى به سكرغا فاخترق جسده وروّع ذلك قلوب الذين لم يكونوا قد لاذوا بالفرار بعد. وسرعان ما تأكّد انتصاره عندما استدار الملك نفسه وأعوانه وفرّوا هاربين.

أمسك بعضنا بأيدي بعض لئلا نتفرّق. ورحنا نشقّ طريقنا وسط الحشود والظلام، يرافقنا عددٌ كبيرٌ من أتباع إغنوسي المخلصين.

كان خاطفونا يعرفون مسالكهم في الريف، حتى في ظلام الخسوف. فقادونا آمنين إلى تلة جبلية. وهنا نصبنا مخيمنا ورحنا نتأمل أشعة القمر تعود، وقد أخذ الخسوف ينحسر. فتغمر الأرض بضوئها الفضي.

شرعنا في تحصين موقعنا في وجه هجوم منتظر. وأخذ إغوسي، في أثناء ذلك، يبعث برسائل مستعجلة إلى قبائل مجاورة كان يعلم أنها تؤيده وتكره حكم الطاغية طولا.

كان لا بد في اليوم التالي حشد قوي من نحو عشرين ألف محارب تلتف حولنا في مجموعات حسنة التنظيم والتسلح، يطيب لهم الموت في سبيل قضية آمنوا بها



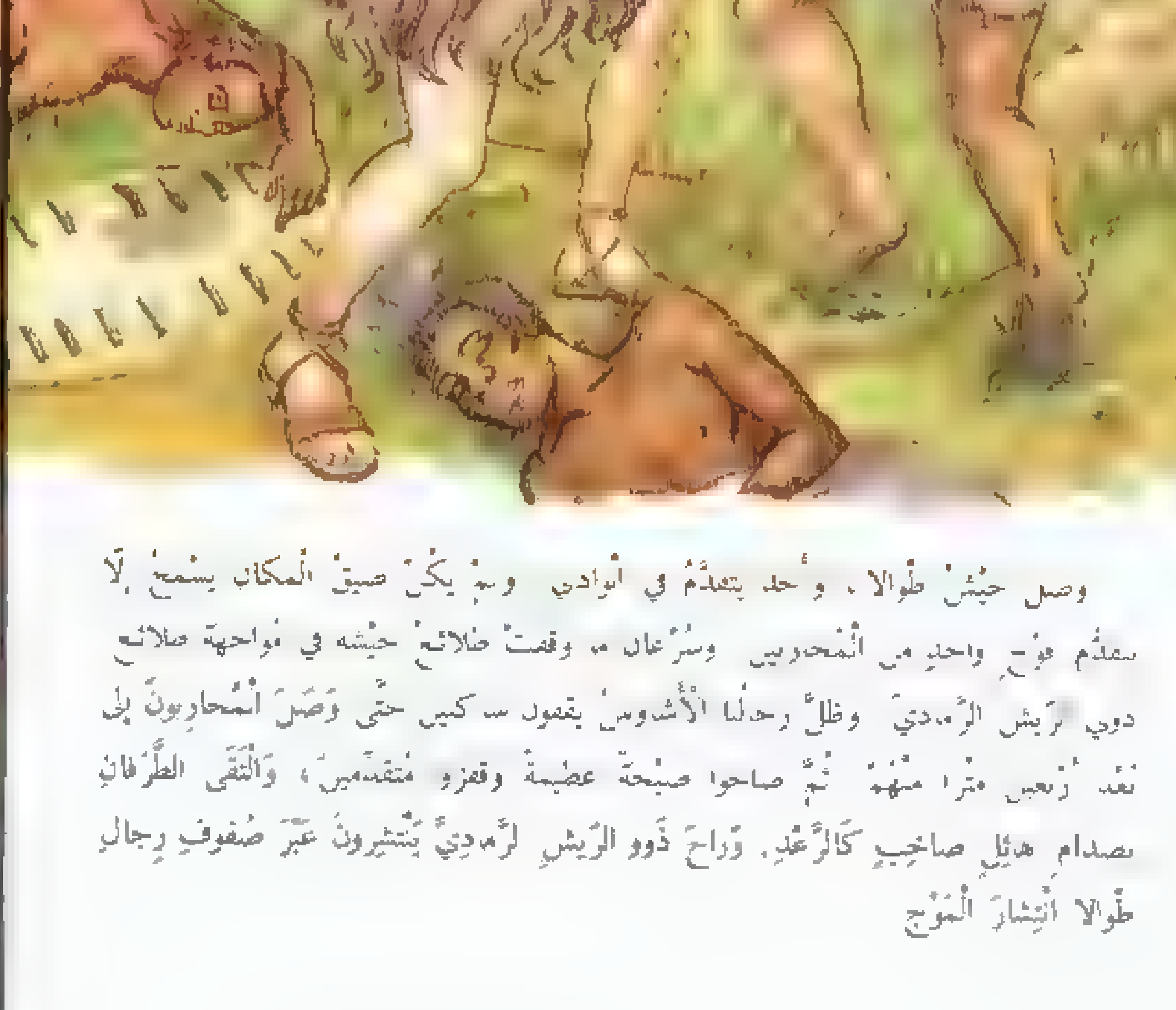
في منتصف الليل كانت الاستعدادات كلها قد اكتملت. وإذ أخذنا أنا والسير هنري نتأمل المحاربين النائمين، رحنا نتساءل كم من أولئك سيكونون في غد نائمين نومة لا نهوض بعدها أبدا

نهضنا عند شروق الشمس نستقبل الحرب بنفس عود ثابتة، أما السير هنري فلبس زي محارب كوكواني

وكان السبيل الوحيد للوصول إلى موقعنا واديا ضيقا بين فرعي التلة. وكانت خطتنا تقضي بأن نستدرج جيش تولا إلى المضيق بين الفرعين وأن نحصره هناك. ونرسل إليه فرقة تنقض هاجمة عليه من جانبي التلة الأيمن والأيسر وتأخذه على حين غرة. صاحبنا غود بوفرة. وكان عليه قيادة فرقة الميمنة. وكان على السير هنري أن يقود الجبهة الأمامية، وتبعته أنا على رأس فرقة محاربي الريش الرمادي. وكان هؤلاء رجالا أشداء طوالا ذوي عزم غير هيابين، وكانوا صفوة جيش إغوسي. يبدون بريشاتهم الرمادية التي يتزينون بها ذوي هيئة جليلة







وصلَ جيشُ طُوالا، وأخذَ يتقدّمُ في الوادي. ولم يكُنْ ضيقُ المكانِ يسمحُ إلّا بتقدّمِ فوجٍ واحدٍ من المحاربين. وسرعانَ ما وقفتْ طلائعُ جيشهِ في مواجهةِ طلائعِ ذوي الرّيشِ الرّماديّ. وظلَّ رجالُنا الأشوسُ يقفون ساكنين حتّى وصلَ المحاربونَ إلى بُعدِ أربعين مترًا منهم. ثُمَّ صاحوا صيحةً عظيمةً وقفزوا متقدّمين، والتقى الطّرفانِ بصدامٍ هائلٍ صاخبٍ كالرّعدِ. وراحَ ذوو الرّيشِ الرّماديّ ينتشرونَ عبرَ صفوفِ رجالِ طُوالا انتشارَ الموجِ.

لا أقوى على وصفِ ما جرى في ذلك اليوم. لم أكُنْ أرى إلّا الحرابَ اللّامعةَ تتطايرُ وسطَ غشاوةٍ من الدّماء. لقد سمعتُ السّير هنري يهوي بفأسه الضّخمة، ورأيتُ إنفادوس الرّابطَ الجأشِ أبدًا، يصيحُ ليبعثَ الحماسَ في نفوسِ محاربيه.

أطلقَ رجالُ طُوالا فجأةً صرخةَ ذُعرٍ. فلقد اندفعَ رجالٌ آخرونَ من جانبي الشّقّة، كما كنّا قد خطّطنا. وما هي إلّا دقائقُ حتّى كانت المعركةُ قد حُسِمت.

وقف طُولا شامخ القامة وحيدًا إلّا منْ نفر قليل منْ رجاله. وصاح: «أيْن هو الرّجلُ الّذي قتل أبي؟» وإذْ لمح السّير هنْري عاجله بضرْبةٍ هائلة قصمتْ فأسهُ ورمتْهُ أرْضًا. أغمضتُ عيْنيّ. وعنْدما فتحْتُهما وجدْتُ السّير هنْري وطُولا يتصارعان صراعًا مريرًا. كلٌّ منْهما يحاولُ أنْ يخْرج منْ تلْك الْمعْركة حيًّا مرْفوع الرّأْس.

فجْأةً صاح غود: «حذارِ الفأْس!» وكان طوُلا قدْ رفع فأْسهُ وأهْوى بها فقفز السّير هنْري متحاشيًا الضّرْبة. وما هي إلّا لحظاتٌ حتّى كان قد انْتزع الفأْس منْ يد خصْمه وضربهُ بها ضرْبةً قاصيةً أطارتْ رأْسهُ عنْ جسده. ورأيْتُ السّير هنْري يقعُ فوْق جُثّة طُولا مغْشيًّا عليْه لكثْرة ما نزف منْ دمه.

بعْد انْقشاع غبار الْمعْركة تبيّن أنّ الرّبْع فقطْ منْ ذوي الرّيش الرّمادي الأشاوس قدْ سلم. وإذا كُنْتُ قدْ خرجْتُ من الْمعْركة دون أنْ أصاب بخدْش، فقدْ أُصيب السّير هنْري وغود كلاهُما بجراحٍ بالغة. تعافى السّير هنْري بعْد وقْتٍ قصيرٍ، أمّا غود فقدْ طال أمدُ علاجه. ولوْلا تفاني فولاطا في خدْمته وسهرها عليْه لما كان نجا. فإنّهُ إذْ راح يهْذي تحْت وطْأة الْحُمّى كانتْ فولاطا ترْعاهُ بحُنوٍّ لا حدّ لهُ.

بعْد حين أخذ الْقُبْطانُ يخْطو في طريق الْعافية. وأخْبرهُ السّير هنْري بما كان منْ أمْر فولاطا ورعايتها لهُ. لكنّ فولاطا قالتْ برقّةٍ: «أنسي سيّدي أنّ الْقُبْطان قدْ أنْقذ حياتي؟ أنا مدينةٌ لهُ في ذلك ما دمْتُ حيّةً.»

زارنا إغْنوسي، وقدْ زيّن رأْسهُ بالْريشة الْملكيّة. وقفْتُ، وقُلْتُ: «السّلامُ عليْك أيّها الْملكُ!»

وأجابني منْ فوْره: «أخيرًا الْملكُ، ولكنْ بفضْل سواعدكُمْ أنْتمْ.»

سألْتُهُ ما ينْوي فعْلهُ بغاغول.

«تسْتحقُّ الْقتْل. فهي الّتي كانتْ دائمًا تخْتارُ الرّجالَ للْموْت، وكانتْ دائمًا ضالعةً في الشّرّ!»



لكنَّ الغولَ كانتْ وحدَها تعرفُ سرَّ الكنزِ، ولمْ يكنْ أحدٌ غيرُها يقدرُ على إرشادِه إليهِ. فكانَ على الغولِ أنْ تختارَ: إمّا أنْ تساعدَ أو تموتَ.

قالتْ: «لنْ أبوحَ بسرِّ الكنزِ، ولستمْ تجرؤونَ على قتلي.»

لمسَ الغوليُّ خنجرَهُ بسبّابتِه المجيدةِ، وكانَ في ذلكَ ما يكفي لإرعابِها. أدركتْ أنَّ الغوليَّ مصمّمٌ على أنْ يضعَ حدًّا لمشاكلِه، وأنّه لنْ يتورّعَ في سبيلِ الوصولِ إلى ذلكَ حتّى عنْ قتلِها.

رمتِ الغولُ نفسَها على الأرضِ مطلقةً صرخةً مدوّيةً. وراحتْ تتلوّى وتصيحُ: «سأدلُّكمْ. أبقوا فقطْ على حياتي، واتركوني أعيشُ مئةَ سنةٍ أخرى. لكنْ حذارِ، فقدْ حدثَ فيما مضى منَ الزمانِ أنْ دلّتِ امرأةٌ رجلاً غريبًا على حجرةِ الكنزِ السرّيّةِ فحلَّ بهِ سوءُ المصيرِ. كانَ اسمُ تلكَ المرأةِ الغولَ أيضًا، إذ هيَ تلكَ المرأةُ!»

لقدْ لاحظنا أنَّ تلكَ العجوزَ الشرّيرةَ عادتْ تحتَ سلطانِنا. فلمْ نحفلْ بما كانتْ تتلفّظُ بهِ منْ كلماتٍ غريبةٍ. وقرَّ رأيُنا على أنْ نجدَّ في السعيِ للوصولِ إلى حجرةِ الكنزِ.

انطلقتْ جماعتُنا: نحنُ الثلاثةَ، وفولاض، وهيَ التي لمْ تكنِ الآنَ تفارقُ مكانَها إلى جوارِ عوّادٍ، وفردوس، والغولُ التي كانتْ تدلُّ على الطريقِ بكلماتٍ غامضةٍ غاضبةٍ طوالَ مسيرتِها معنا.

رأينا من بُعدٍ ما بدا لنا أنّه ثلاثةُ أعمدةٍ مرفوعة. لكنْ عندما اقتربْنا منها وجدْنا أنّها أشكالٌ صخريّةٌ يرتفعُ الواحدُ منها نحوَ عشرين متراً. تُسمّى عندهم الأرواحَ التي تحرسُ مدخلَ الكنز. وأمامَ هذه الأشكالِ فجوةٌ صخريّةٌ سحيقةٌ. فقدْ ذكّرتْني تلكَ الفجوةُ بما رأيتُهُ من حفريّاتِ مناجمِ الماسِ في أماكنَ أخرى، بما فيها من صخورٍ صلصاليّةٍ ضيّقةٍ زرقاء. فهتفتُ:

«أتدرون سرَّ هذه الفجوة؟ إنّها حفريّاتُ ماس!»

وصلْنا أخيراً إلى جدارٍ من الصخرِ الصلدِ يرتفعُ نحوَ أربعين متراً. أنزلْنا غاغول من محفّتها، فمشتْ مشيتَها العرجاءَ صوبَ ذلكَ الجدار. ثمّ وقفتْ أمامَ فتحةٍ صغيرةٍ فيه ووقفتْ قليلاً.

«فلتكنْ قلوبُكُمْ قويّةً لتحتمِلَ ما سوفَ ترَوْنَ!»

امتنعَ إنفادوس عن الدخولِ معنا. وتردّدتْ فولاطا أيضاً. ولكنّ وفاءَها لغود تغلّبَ عندَها فتبعتْنا إلى ما لعلّه أعجبُ مكانٍ وقعتْ عليهِ عينُ إنسانٍ





كانت قاعة ضخمة لم تقع قدمٌ أيٍّ منا على قاعة أضخم منها، كهفٌ طبيعيٌّ لا نور فيه، يضيئه نورٌ خفيفٌ ينفذ طريقه عبر الجدار العلوي منه. وكانت تتدلّى في جوف ذلك الكهف أعمدةٌ برّاقة صاعدة ونازلة، تشكّلت من تقطّر المياه، وما فيها من ترسّبات معدنية، عبر ألوف السنين. تنظر إليها عيناي مستمرًّا. إنّ لساني ليعجز عن وصف ما في ذلك المشهد المهيب من جمال.

لكنّ عاغون بدت قلقة لا تستقرّ على حال، وكأنّما أعطاها أنّ شكًّا في مسيرنا فأسرعت تمشي أمامنا حتى وصلنا إلى نهاية الكهف، وهناك وقفت عند باب آخر.

سألتنا عاغون بلهجة ملؤها الخشوع: «أأنتم مستعدّون أن تدخلوا كهف الموت، أيها الأغراب؟!»

حدّق السير هنري في الممرّ المعتم، وقال: «هذا شيءٌ مقبضٌ للنفس!»

كانت عاغون تدقّ بعصاها الأرضَ دقًّا رتيبًا فتبعث الرهبةَ في نفوسنا. ترددتُ لحظة. وقد عراني شعورٌ أنّ مكروهًا يوشك أن يحلّ بنا.

وسمعتُ غود يقول في لهجةٍ يسعى إلى أن تبدو مرحة: «عجّلْ يا صاحبي، وإلّا فقدنا دليلنا الوفيّ!»

وحدثَ شيء، بعدَ نحو عشرين خطوةً، في قاعةٍ أخرى. فقد أفلتت صيحةٌ من ساعتها وأنهيت منها بصعوبة، ورأيتُ ما بدا لي طاولةً حجريّةً يحيطُ بها أعمدةٌ بيضاء. ويتوسّطها شكلٌ داكنُ اللونِ لم تتبيّنْ حقيقتُه في الظلام. بدا لي جالساً فوقها. ثمّ تعوّدتْ عيناي بعد لحظاتِ الظلام، وعندما تبيّنتُ حقيقةَ تلك الأشكال، استدرتُ على عقبيّ وجريتُ أسعى إلى الخروج من ذلك المكان.

رأيتُ في حياتي مشاهدَ مرعبةً عديدةً لم تروّعني كهذه المرّة. فإنّي أعترفُ أنّه لو لم يتمسّكْ بي السير هنري، ويجبرْني على البقاء في مكاني، لكنتُ تابعتُ جريي إلى خارج الكهف. وما كانت كلُّ ماسات الدنيا قادرةً على أن تغريني بالعودة إليه.

أمسكَ بي السيرُ هنري بيديه القويّتين، إلى أن اعتادتْ عيناي الظلام، فأخلى سبيلي لأمسحَ العرقَ المتصبّبَ من جبيني. أمّا فولاطا فقد أسرعتْ تلتجئ إلى غود وتحيطه بذراعيها، بينما راح هو يبتسم دافعاً إيّاها، ولم يختلفْ عنّي في هيئته إلّا أنّي رحتُ أضحكُ ضحكاتٍ قصيرةَ النَّفَس.

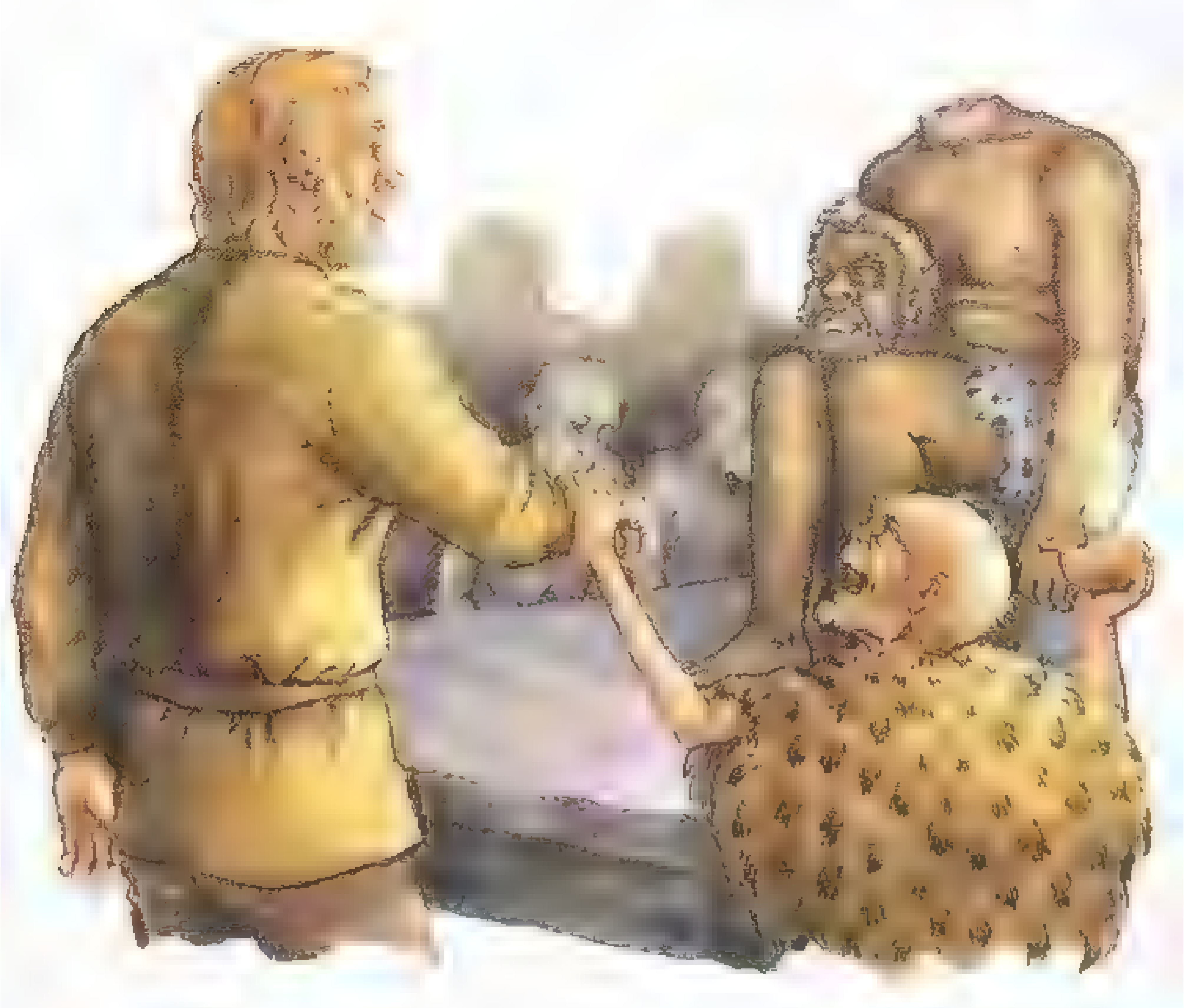
كان على رأس الطاولة هيكلٌ عظميٌّ أشبه بهيكلٍ عظميٍّ بشريّ، ولكنْ يعلو نحو خمسة أمتار. وكان يمسكُ في يده حربةً بيضاء هائلة. ذلك كأنّه ملاكُ الموت وقد بدا وكأنّه يهمُّ بالنهوض عن الطاولة، ويوشكُ أن يرمي حربته. وبدا كأنّه ينظر إلينا بوقبَي عينيه الأجوفين، ويهمُّ بالكلام. دفعتني الرهبةُ إلى الالتفات إلى الأشكال البيضاء حول الطاولة، والشكلِ القاتم الّذي بدا جالساً فوقها.



حسبتُ عيون ما يخفي فيه من ذعر. وارتعشت صوتها تحدث. قالت تعرف من كلمة سيدة في ساحة الوغى. تعرف وتطرق رجلي لدى قدميه.

مشى السير هنري وراءها. ثم ندت عنه صرخة هلع، فقد تبين له أن الشكل القاتم لم يكن إلا جثة صول. ميت كوكو، لدى قدمه السير هنري. وقد وضع رأسه المقطوع على ركبتيه. وذهبت حسنه بمادة شفقة لماعة زادت مشهده رعبا.

ستغطى عينيه. لدى ذي بدء. فهم ما رأى. ثم لاحظ أن أمه المتحجرة فوق سطح يسقط قطرة قطرة على عنق الخنزير ويسيل بعد ذلك عليه كله. فما رأى صولا يتحول شيئا في الخنزير الحجري.



لقد أثبتت لنا الأشكال البيضاء حول الطاولة صدق ما استنتجناه. فهذه الأجساد البشرية تحجرت بفعل عامل الطبيعة البطيء. لقد حفظت أجساد ملوك الكوكب على هذه الصورة منذ أمد لا يعلم أحد مبتداه. ذلك كان مستقر الموت الأبيض والموتى البيض.

عندما استغرقت روضة خشية أحداث تتفحص تلك المتحجرة المروعة التي يبدو أنها نحتت في الصخر نحتا. تسلقت عاعون في هذه الأثناء الطاولة بجهد وسعت إلى حيث كان جسد طويل موضوعا تحت قطرات الماء الراكدة. ثم راحت تدور حول الطاولة تخاطب الأجساد المتحجرة كما يخاطب الصديق صديقه. وشرعت بعد ذلك تخاطب بصلاتها الموت الأبيض نفسه.

لقد كان مرأى تلك المخلوقة الشريرة وهي تناجي ملاك الموت، عدو الإنسان، من الرهبة بحيث كنا جميعا متأهبين للخروج من هناك.

قلت بصوت خفيض، متهيبا من رفع صوتي في ذلك المكان الرهيب: «الآن يا عاعون. حدثيني عن الكنز!»

حدقت عاعون في وجهي، وقالت: «هل ستدلي حديثي؟ حدث، فيما مضى من الزمن، أن أدخلت مرة رجلا غريبا على حجرة الكنز السرية فحل به سوء المصير. كان اسم تلك المرأة عاعون أيضا. أو هي تلك المرأة!»

قلت بصوت متحشرج: «أنت كاذبة. لقد حدث ذلك منذ مئات السنين».

«ربما! فالمرء إذ عاش طويلا مثلي ينسى. ستجد في ذلك المكان كيسا من الجواهر الراقية. لقد ملأ ذلك الغريب كيسه تلك الجواهر. لكن لم يتح له أن يأخذها».

كانت رغبة في الوصول إلى الكنز قد تملكت آنذاك حواسي. فلم أعبأ بتهديداتها. صمت، وقد أغضبني تهكمها:

«حذار، يا عاعون!»



مشتْ غاغولُ إلى الوراءِ ملءَ الصوتِ وقالتْ: «حسنًا يا سادة! ها هي الحجرةُ!»

لمْ نرَ أمامَنا إلّا جدارًا صخريًّا أصمَّ. فصحتُ غاضبًا: «أنا لا أرى شيئًا!»

قالتْ غاغولُ: «على مَهْلِكَ!» وبدا أنّها تمدُّ يدها إلى الجدارِ الصخريِّ. وإذْ نحنُ نحدّقُ بأنظارِنا رأيْنا صخرةً ضخمةً تنزلقُ منْ مكانِها وترتفعُ ببطءٍ إلى أنْ يبتلعَها الجدارُ الصخريُّ. لا بدَّ أنَّ غاغولَ، إذْ كانتْ تستندُ إلى الجدارِ الصخريِّ متظاهرةً بالتعبِ، قدْ ضغطتْ على نقطةِ ارتكازٍ خفيّةٍ تتحكّمُ بالصخرةِ فترفعُها أوْ تنزلُها.

لقدْ كانتْ حماستُنا لرؤيةِ الطريقِ إلى الكنزِ مفتوحةً أمامَنا لا توصفُ. كنتُ أنا أنتفضُ انتفاضًا.

«ادخلوا يا سادتي! وإذا صحَّ ما أقولُ، ستجدونَ كيسَ جلدِ الماعزِ المملوءَ بالحجارةِ مرميًّا على الأرضِ. وإذا كانَ في دخولِكُمْ إلى هنا موتُكُمْ، فذلكَ أمرٌ سينكشفُ عمّا قريبٍ!»

تقدّمتْ غاغولُ في الممرِّ أوّلًا تحملُ مصباحًا منْ زيتٍ، وبعدَ أنْ سرْنا في الممرِّ بضعةَ أمتارٍ وصلْنا إلى جدارٍ غيرِ مصقولٍ. هنا توقّفتْ فولاطا لا تجرؤُ على مواصلةِ السيرِ، وواصلْنا نحنُ سيرَنا إلى أنْ وصلْنا إلى بابٍ خشبيٍّ ذي رسومٍ غريبةٍ. كانَ البابُ مفتوحًا، ورأيْنا في الممرِّ منْ خلالِ فتحةِ البابِ كيسَ جلدِ الماعزِ، وقدْ بدا منتفخًا بالحجارةِ.

دبّتِ القشعريرةُ في جسدي، لكنَّ السيرَ هنري واصلَ سيرَهُ، فتبعْناهُ. وأخيرًا وجدْنا أنفسَنا في حجرةِ كنوزِ الملكِ سليمانَ. كانتِ الحجرةُ صغيرةً جدًّا ومنقوبةً في الصخرِ، ورأيْنا أمامَنا نحوَ دستةٍ منَ الصناديقِ المطليّةِ باللونِ الأحمرِ.

شرعْنا نحطّمُ أغطيةَ الصناديقِ الخشبيّةَ بتلهّفٍ، وكانتْ قدْ أصبحتْ معَ طولِ الزمانِ هشّةً. أنزلْتُ يدي في صندوقٍ وأخرجْتُها، فإذا هي ملأى بقطعٍ ذهبيّةٍ.

قالَ غود: «ما منْ ماسٍ هنا. إلّا إذا كانَ دي سيلفسترا قدْ وضعَها كلَّها في كيسِهِ.»

قالتْ غاغولُ عندئذٍ بضحكةٍ شرّيرةٍ: «فتّشوا يا سادتي في الصناديقِ الّتي هناكَ!»

عَمِلَ السَّيِّدُ هِنْرِي بِما قالَتْ، وَرَفَعَ الْمِصْباحَ فَوْقَ صُنْدوقٍ مَفْتوحٍ. لَمْ نَرَ لِأَوَّلِ وَهْلَةٍ شَيْئًا. فَقَدْ بَهَرَ بَصَرَنا بَريقٌ فِضِّيٌّ. ثُمَّ رَأَيْنا ماسًا، مِئاتٍ مِنَ الْماساتِ غَيْرِ الصَّقيلَةِ، تُضارِعُ بَعْضُها حَجْمَ بَيْضِ الْحَمامِ.

رانَ عَلَيْنا الصَّمْتُ لَحَظاتٍ. وَقَفْنا ساكِتينَ يَنْظُرُ بَعْضُنا في وَجْهِ بَعْضٍ. وَكانَ بَيْنَنا الْمِصْباحُ وَالْجَواهِرُ الْمُشِعَّةُ.

قُلْتُ: «سَنَكونُ أَغْنى أَغْنِياءِ الدُّنْيا.»

وَسَمِعْنا صَوْتَ غاغول يُقَوْقِئُ خَلْفَنا. وَكانَ صَوْتُها الْحادُّ يَمْلَأُ الْحُجْرَةَ الصَّغيرَةَ:



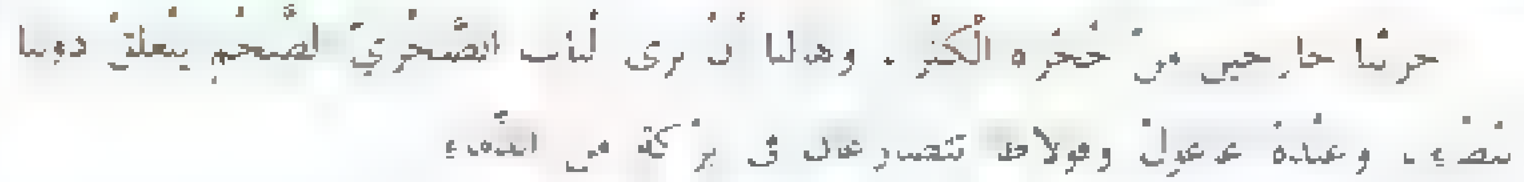
«تِلْكَ هِيَ الْحِجارَةُ الَّتي تُحِبّونَ. وَيُمْكِنُكُمْ مِنْها قَدْرَ ما تَرْغَبونَ. خُذوها بَيْنَ أَصابِعِكُمْ. كُلوها! اِشْرَبوها إِنْ قَدَرْتُمْ!»

كانَ أَمامَنا حَقًّا صَناديقُ مِنَ الْجَواهِرِ وَالْقِطَعِ الذَّهَبِيَّةِ قابِعَةٌ هُناكَ مُنْذُ قُرونٍ.

شَرَعْنا نَفْتَحُ الصَّناديقَ، فَلَمْ نُلاحِظْ في حَماسَتِنا غاغول تَتَسَلَّلُ خارِجَةً مِنْ حُجْرَةِ الْكَنْزِ مُتَّجِهَةً صَوْبَ الْبابِ الصَّخْرِيِّ.

فَجْأَةً سَمِعْنا صَرَخاتٍ تَتَوالى. كانَ ذلِكَ صَوْتَ فولاطا:

«النَّجْدَةَ، النَّجْدَةَ! قَتَلَتْني!»



جرينا خارجين من حجرة الكنز. وهالنا أن نرى الباب الصخري الضخم يغلق دوننا ببطء، وعندها غاغول وفولاطا تتصارعان في بركة من الدماء.

كانت الفتاة الشابة تمسك بالساحرة العجوز، لكنّ غاغول كانت تكافح كقطة وحشية لتحرّر نفسها من قبضة فولاطا وتتمكّن من الزحف تحت الباب الصخري الهابط. لكنْ كان قد فات الأوان، فقد أطبق الباب الصخري الضخم بثقله الرهيب على جسدها المدوي لتسوّي مصدرًا قرقعة مروّعة. أمّا فولاطا، وكانت سكّين غاغول قد اخترقت صدرها. فقد ارتمت بين ذراعي غود تلفظ أنفاسها الأخيرة عند عتبة البوابة الصخرية في حماسة لتمنعنا من ممرّ الكنز.

وجّهت فولاطا كلماتها الأخيرة إلى غود لم يكن يفهم لغتها. قالت: «قل لسيّدي إني أحبّه. قل له إني راضية بالموت. فأنا أعرف أنّ عالمينا مختلفان. قل له إنّه إذا قدّر لي أن أعيش في حياة ثانية، فسوف أبحث عنه بين النجوم. أفتّش فيها واحدة واحدة إلى أن أجده.» وكان ذلك آخر ما تلفّظت به. صرخ غود، وقد انهمرت من عينيه الدموع: «ماتت!» قال السير هنري: «لا تشغل بالك بذلك!»

أغضب ذلك غود. وقال: «ما تعني؟» أجاب السير هنري شاحبًا: «أعني أننا سنلحق بها عمّا قريب! ألا ترى أنّ الباب قد أغلق دوننا، وأنّ هذا هو قبرنا؟»

فهمنا، ونحن أمام جثة فولاط، الموت البطيء المروع الذي كانت عاقبته قد خططته لنا.

وعلى الرغم من أن الخوف مما ينتظرنا من مصير مروع قد صعقنا، لكننا لم نترك ذلك الخوف يشلنا طويلاً. إذ سرعان ما تمالكنا رباطة جأشنا وبدأنا نتفحص الجدار تفحصاً متأنياً بحثاً عما يمكن أن يكون فيه من نقطة خفية تتحكم بالباب الصخري. لم نجد ما كنا نبحث عنه. فعدنا إلى الحجرة الكبرى مثقلي القلوب.

كنا قد حملنا معنا من الطعام والماء ما يكفينا يوماً كاملاً. لكننا كنا نعلم أننا سرعان ما سنغرق في الظلام. وفي الواقع، ما إن جلسنا لحظة بين صديقي نفكر في حالنا حتى رأينا شعلة المصباح تشتد توهجاً وحيرة. [illegible] نلقي نظرتنا الأخيرة



على الذهب والجواهر التي طالما تمنيناها. ثم خبا الضوء وانطفأ.

كان الصمت الذي تملكنا في تلك اللحظة أشد فظاعة حتى من الموت الزاحف علينا. كان بيننا وبين قاعة الموتى متراس من الصخر الأصم، والموتى لا يأتون بصيحة. وعلى علو مئات الأمتار من فوقنا تسبت الهوة الثلجية فوق الثلج. ولكن قد لا يصل إلى قبرنا المحتوم. وفي محاولة يائسة رحنا نصرخ. لكن سرعان ما أقلعنا عن ذلك مكسوري الخاطر. فقد استنفد المجهود قوانا وتسبب في عطشنا.

أخيراً استسلمت لليأس، ووضعت يدي على كتف السير هنري مهدود الحيل. لقد عاملنا ذلك الرجل القوي [illegible] كما تعامل مربية طفلين مذعورين.

وهكذا راح الوقت يمر.





أشعلتُ عودَ كبريتٍ لأنظرَ في ساعتي، وإذْ كنتُ أقومُ بذلك خطرَ لي خاطرٌ، فسألتُ بصوتٍ عالٍ:

«كيفَ يدخلُ الهواءُ في هذا المكانِ نقيًّا؟!»

تعلّقنا كلُّنا بذلك الأملِ، وهي تعلّة حسبناها. ورحنا نبحثُ عن شقٍّ يدخلُ منه الهواءُ، ووجد عود في الأرضِ قرصًا حجريًّا يغطيه الحصى والغبارُ. لم نكدْ نجرؤُ على أنْ نصدّقَ ما لاحَ لنا من أملٍ. وبكلِّ ما بقيَ فينا من قوّةٍ رفعنا ذلك القرصَ، ورأينا على ضوءِ عودِ الكبريتِ أنّ تحتنا درجًا يوصلُ إلى أعماقَ أشدَّ غورًا، لكنّا رأينا في ذلك خلاصًا.

قبلَ أنْ نشرعَ في النزولِ، طلبَ منّي السيرُ هنري أنْ أحملَ معي ما تبقّى معنا من زادٍ، ففعلتُ ذلك. لكنّي أيضًا ملأتُ جيوبي وسلّةَ الطعامِ بالماسِ، ثمّ تركنا ذلك المكانَ الملعونَ إلى الأبدِ.

وجدنا في أسفلِ الدرجِ شبكةً من الممرّاتِ، فرحنا نسيرُ يمينًا أو يسارًا سيرًا عشوائيًّا، نتلمّسُ طريقَنا في الظلامِ بلمسِنا. فجأةً سمعنا صوتَ ماءٍ يتدفّقُ، وصوتَ جسمٍ يقعُ فيه. أشعلنا عودَ كبريتٍ ورأينا عود قدْ سقطَ في الماءِ، ورأيناه، إنقاذًا لنفسِه، يمسكُ بصخرةٍ. فسرعانَ ما أخرجناه، شربنا وتقدّمنا في طريقنا مجهَدين. وبدا لنا آنذاكَ أنّنا أفلتنا من حجرةِ الكنزِ لنموتَ هنا وسطَ ظلامٍ أحلكَ.



ثمّ سمعا صوتًا عاليًا. لقد كان أمامهما بصيص ضوءٍ فسعيا إليه. ووجدا أنفسهما بعد دقيقة يتنفّسان هواء الطلق. كان ممرّهما الآن ترابيًّا وليس منقوبًا في صخر، وسرعان ما وجدا أنفسهما في الهواء الطلق.

وقفا على سفح الجبل يتأمّلان النجوم التي لم يكن يحسب أنّه سيقدّر له أن يراها مرّة

أخرى، وسالت من عينيه دموع الفرح [illegible]. وقد سوّدت وجوههما وتشعّث شعرهما وامتلأت أجسادهما وحلًا [illegible] طريق سليمان تحت [illegible] ورأيا شخصًا يقبل عليهما يركض. كان ذلك إغدوس الأمين.

صاح إغدوس بفرح عظيم: «يا سادتي، لقد عدتما أخيرًا!»

ابتهج عموسي وقومه بعودتنا سالمين، وبهلاك غاغول. لكنّ عموسي حزن لأنّنا سنبتعد بالرحيل. ذكّرت عموسي أنّه قد عاد إلى بلده، وأنّنا نحن أيضًا نرغب الآن في العودة إلى بلدنا. فودّعنا. ومضينا بقلوب مثقلة صامتين.

مشى معنا بندوس إلى أن وصلنا إلى الجبال. وهناك أرانا ممرًّا غير ذاك الذي سلكناه في مجيئنا، يوصل، كما قال، إلى واحة. ولا شكّ أنّ ذلك هو الممرّ الذي سلكته والدة عموسي منذ زمن بعيد حين هربت بابنها من وجه طوالا، وإلّا لكانت هلكت في الصحراء هي وابنها الفتى.

صحّ ما تنبّأ به بندوس. في ظهيرة يوم الثالث رأينا في الأفق البعيد أشجارًا، وعند الغروب كنّا نطأ أرضًا معشبة بجانب ماء جارٍ.

الآن أحدّثكم بما لعلّه أغرب ما واجهني في رحلتنا المدهشة تلك. فقد كنت أسير في المقدّمة، على مسافة يسيرة من صاحبيّ. توقّفت فجأة وفركت عينيّ. لقد رأيت بين الأشجار كوخًا صغيرًا. ورأيت رجلًا يمشي متّكئًا على عصا مشية مضطربة. وبدا لي كأنّي أعرف ذلك الرجل!

كان الغريب ذا لحية سوداء ويغطّي جسده بجلود الحيوان. وحين رآنا صرخ ووقع مغشيًّا عليه. سمعنا السير هنري يصيح هو الآخر صيحة مضطربة ويجري صوب ذلك الرجل.

يا إلهي! ذلك هو أخي!

تأثّرت، وعود تأثّرًا بالغًا إذ لمست البهجة والمحبّة اللتين لاقى بهما كلٌّ من الأخوين أخاه.

تحقّق الآن كلّ ما جئنا من أجله. وإنّ كان السبب الذي اختصم الأخوان لأجله من قبل، فإنّه الآن قد صار شيئًا منسيًّا. واستمعنا في المساء إلى جورج يروي لنا



مُغامَرَتِهِ. لَقَدْ حاوَلَ الْوُصولَ إِلى جَبَلِ سُلَيْمانَ عَنْ طَريقِ الْواحَةِ الَّتي سَلَكْناها في رِحْلَةِ عَوْدَتِنا. لٰكِنَّ حادِثًا مُؤْسِفًا عَطَّلَ ساقَهُ وَأَجْبَرَهُ عَلى الْبَقاءِ حَيْثُ هُوَ. فَلَمْ يَكُنْ قادِرًا عَلى مُتابَعَةِ رِحْلَتِهِ وَلا الْعَوْدَةِ مِنْ حَيْثُ أَتى، وَوَجَدَ نَفْسَهُ مُجْبَرًا عَلى الْعَيْشِ مُتَشَبِّثًا وَحيدًا في تِلْكَ الْواحَةِ. وَقَدْ حالَفَهُ الْحَظُّ لِأَنَّهُ كانَ في مَكانٍ يَتَوافَرُ فيهِ الْماءُ وَالطَّعامُ وَالصَّيْدُ. وَهٰكَذا تَمَكَّنَ مِنَ الْبَقاءِ حَيًّا، إِلى أَنْ أَتاحَتْ لَنا الْعِنايَةُ الْإِلٰهِيَّةُ أَنْ نُنْقِذَهُ.

كانت طريق العودة إلى قرية سيتلند شاقة. فقد كان علينا أن نخوض حروبًا على مسافة طوال الطريق. عندما وصلنا إلى سيتلند كان الرئيس غاضبًا. هناك وجدنا عربتنا ومؤنتنا سالمة في عهدة سواقين لأمينين عوا وطوم. وبعد أيام من الراحة، شددنا ثيراننا الاثني عشر إلى عربتنا وبدأنا رحلة العودة الطويلة بغير مشقة. وقد مررنا في مناطق مختلفة إلى أن وصلنا أخيرًا إلى مزرعتي في ناتال القريبة من دربان.

بعد نحو أسبوع وقفت في ميناء دربان أودع السير هنري وأخاه والقبطان غود الذين استقلوا باخرة تقلهم إلى مدينة الكاب ومنها إلى إنجلترا. لقد واجهنا معًا العديد من المحن والكروب فكان الوداع مؤثرًا. لكننا تعاهدنا على أن نلتقي في وقت غير بعيد.



بعد بضعة شهور تلقيت رسالة من صديقي السير هنري جاء فيها:

«وصلنا ثلاثتنا إنجلترا سالمين. ويسعدني أن أخبرك أن الجراحين قد عالجوا ساق أخي علاجًا ناجحًا. ولم يضايق القبطان غود أن تسربت حكاية أسنانه الاصطناعية السحرية إلى الصحف والمجلات. ولكن المسكين لا يزال حزينًا جدًا على موت فولاطا. ويقول إنه لن يجد لها في حياته مثيلًا

لأنّ حديثَ الأغصان. لقدْ أخذْنا، أنا وعُود، الماساتِ، وَثمّنّاها في سوقِ الجوهرِ. ويسرّني أنْ أُعلمكَ أنّ هذه الماساتِ تساوي ثروةً هائلةً. فإنّها لا مثيلَ لها لا منْ حيثُ حجمُها ولا منْ حيثُ صفاؤها وجودتُها. وقدْ نُصحْنا أنْ نبيعَها على مراحلَ، لئلّا نُغْرِقَ سوقَ الماس.

نحنُ الآنَ ذوو ثراءٍ فاحشٍ، وإنّ لديْنا مشروعاتٍ كثيرةً مثمرةً. لعلّكَ ترغبُ في العودةِ ومشاركتِنا في مشروعاتِنا، أوْ لعلّكَ ترغبُ في كتابةِ أحداثِ المغامراتِ المذهلةِ التي عشْناها سويّةً.»

لمْ يبقَ منْ أخباري إلّا القليلُ. لقدْ فكّرْتُ مليًّا في ما وردَ في رسالةِ سيرْ هنري. ورأيْتُ أنّني فعلًا راغبٌ في العودةِ إلى بلدي. فقدْ كانَ ما أنجزْتُهُ يفوقُ ما يُمكنُ أنْ يخطرَ على بالٍ حتّى في أعجبِ الأحلامِ. وكنْتُ أخشى أيضًا ألّا يطولَ حظّي المذهلُ ملازمًا لي. فأقمْتُ أسبوعًا رتّبْتُ شؤوني، وبِعْتُ ما عندي منْ ممتلكاتٍ يسيرةٍ، ثمّ أبحرْتُ إلى بلدي.



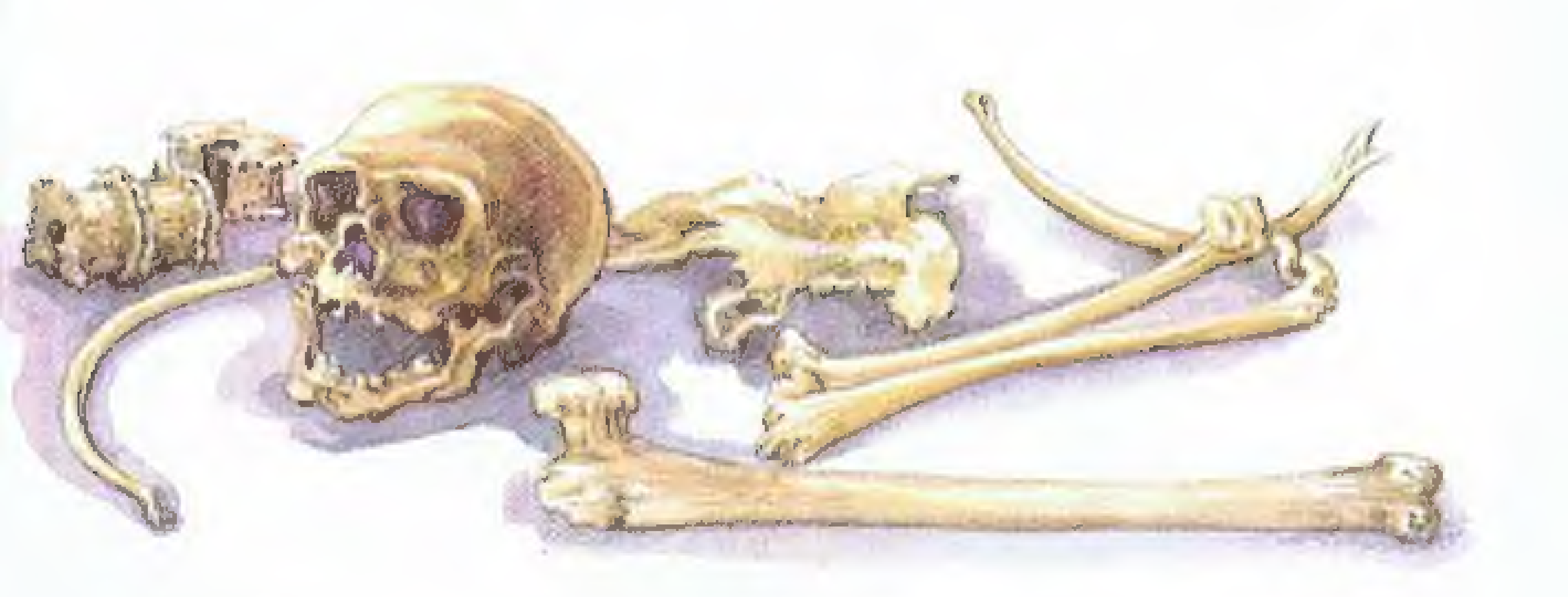
هَنْري رايْدَر هَغَرْد

وُلِدَ هَنْري رايْدَر هَغَرْد في بَلْدَةِ بْراوِنْهام في إِنْجِلْترا في ٢٢ حَزيرانَ (يونْيه) مِنْ عامِ ١٨٥٦. ارْتَحَلَ في فُتُوَّتِهِ إلى جَنوبِ إفْريقْيا، وَعَمِلَ في وَظائِفَ مُخْتَلِفَةٍ. وَمَعَ أَنَّهُ تَرَكَ تِلْكَ الْبِلادَ في الْعامِ ١٨٨١ إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ، فَلَقَدْ طَغَتْ صورَتُها على مُخَيِّلَتِهِ وَاتَّخَذَها وَحْيًا في الْعَديدِ مِنْ كِتاباتِهِ.

نَشَرَ كِتابَهُ **كُنوزُ الْمَلِكِ سُلَيْمانَ** الَّذي نُقَدِّمُهُ هُنا إلى الْقارِئِ الْعَرَبِيِّ، في الْعامِ ١٨٨٥، فَلاقى عَلى الْفَوْرِ نَجاحًا واسِعًا. ثُمَّ نَشَرَ عَدَدًا مِنَ الْكُتُبِ الْأُخْرى الَّتي رَسَّخَتْ مَوْقِعَهُ كَواحِدٍ مِنْ أَعْظَمِ كُتّابِ الْمُغامَراتِ في عَصْرِهِ. لَقَدْ طَغَتْ إفْريقْيا عَلى كِتاباتِهِ، لٰكِنَّهُ لَمْ يَجْعَلْ مِنْها وَحْدَها مَسْرَحًا لِأَعْمالِهِ. فَقَدْ كَتَبَ كُتُبًا مُشَوِّقَةً جِدًّا تَدورُ أَحْداثُها في إيسْلَنْدا وَالْمَكْسيكِ وَمِصْرَ الْقَديمَةِ. وَيَجْمَعُ بَيْنَ هٰذِهِ الْكُتُبِ ما فيها مِنْ مُغامَراتٍ، وَما في الْبِلادِ النّائِيَةِ الْغامِضَةِ الَّتي تَدورُ فيها الْأَحْداثُ مِنْ سِحْرٍ وَتَشْويقٍ.

وَمَعَ أَنَّ عَمَلَهُ في الْكِتابَةِ اسْتَغْرَقَ جُلَّ وَقْتِهِ، فَإِنَّه كانَ قادِرًا عَلى أَنْ يُسْهِمَ في نَشاطاتٍ أُخْرى عَديدَةٍ. وَكانَ لِلزِّراعَةِ وَأَوْضاعِ النّاسِ الاجْتِماعِيَّةِ نَصيبٌ كَبيرٌ مِنْ تِلْكَ النَّشاطاتِ. وَقَدِ اشْتَرَكَ في عَدَدٍ مِنَ اللِّجانِ في مَجالَيِ الزِّراعَةِ وَأَحْوالِ أَهْلِ الرّيفِ. كَذٰلِكَ أَسْهَمَ في نَشاطاتِ مُؤَسَّسَةِ الْبِرِّ وَالإِحْسانِ الْمَعْروفَةِ بِاسْمِ «جَيْشِ الْخَلاصِ». وَكانَ أَنِ ارْتَحَلَ إلى أَميرْكا لِيَتَعَرَّفَ إلى أَساليبِ تِلْكَ الْمُؤَسَّسَةِ هُناكَ في مُساعَدَةِ الْفُقَراءِ.

تابعَ هغرْد كتابةَ القصصِ طوالَ حياتِه، وكتبَ أيْضًا سيرَتَهُ الذّاتيّةَ: The Days of My Life (أيّامِ حياتي)، الّتي نُشِرَتْ في العامِ ١٩٢٦. وكانَ شديدَ التّواضُعِ فيما يتعلّقُ بما نالَتْهُ أعْمالُهُ القصصيّةُ مِنْ شُهْرَةٍ ذائعةٍ. وظلَّ دائمًا يُصرِّحُ أنّهُ يعْتبرُها أعْمالَ راويةِ حِكاياتٍ لا أعْمالَ روائيٍّ عظيمٍ. ومهْما يكُنْ مِنْ أمْرٍ، فإنّهُ نجحَ في كتابةِ مُغامَراتٍ مُشوِّقةٍ ستحْظى دائمًا باهْتِمامِ النّاسِ وتُثيرُ خيالَهُمْ. وكانَتْ وفاتُهُ في ١٤ أيّار (مايو) ١٩٢٥.



كتب الفراشة - القصص العالميّة

١ - الدُّكتور جيكل ومِستر هايْد
٢ - أوليفَر تْويسْت
٣ - نِداء البَراري
٤ - موبي دِك
٥ - البَحّار
٦ - المخْطوف
٧ - شَبَح باسْكِرْفيل
٨ - قِصَّة مَدينَتين
٩ - مونْفليت
١٠ - الشَّباب
١١ - عَوْدة المُواطِن
١٢ - الفُنْدق الكبير
١٣ - حَولَ العالَم في ثمانينَ يَومًا
١٤ - رِحْلَة إلى قَلْبِ الأرض
١٥ - كُنوز الملِك سُلَيْمان
١٦ - سايْلس مارْنَر
١٧ - شيْرلي
١٨ - رِحلات جَلِڤَر
١٩ - بعيدًا عن صَخب النّاس
٢٠ - مُغامَرات هَكلبري فين
٢١ - ديڤيد كوپرفيلد
٢٢ - بْليك هاوُس
٢٣ - بْلاك بيُوتي



كتب الفراشة

القصص العالميّة ١٥. كُنوز المَلِك سُلَيمان

إفريقيا القرنِ التّاسعَ عشرَ، كما تَصوَّرها النّاس وصوَّرها الرحّالة، قارّة حافلة بالغرائب – إفريقيا القبائل الغامضة والتراث القديم والكنوز الدفينة. الكاتب، في هذه القصّة المشوّقة الرّائعة، يصف لنا الساحرات والخوارق، والممرّات السرّية القديمة، وطبعًا الكنوز الدفينة. ولعلّ من أبرز المشاهد إثارة ذلك المشهد الذي يصوّر وصول بطل الكتاب وصحبه ودليلتهم الشرّيرة، الساحرة غاغول، إلى «كهف الموت»، حيث الموتى من ملوك القبائل، يتحوّلون ببطء، بفعل المطر المتقطّر من سقف الكهف، إلى حجارة.



مكتبة لبنان ناشرون


01C196815